الطبعة الثانية

رواية



فاتحة مرشيد

لحظات لا غير



المركز الثقافي العربي

فاتحة مرشيد

لحظاتٌ لا غير

رواية



فاتحة مرشيد

لحظات لا غير

الكتاب

لحظاتٌ لا غير

تأليف

فاتحة مرشيد

الطبعة

الثانية، 2010

عدد الصفحات : 176

القياس : 14.5 × 21.5

الترقيم الدولي :

ISBN: 9953-68-196-1

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : 2303339 ـ 2307651

فاكس : 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب : 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف : 01750507 ـ 01352826

فاكس : 01343701 ـ 961+

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

تريّث قليلا أيّها الموت. . .
إنّي أكتب

- 1 -

أذكر يوم دخل عيادتي أول مرة . .

كان كطفل لم يهيئ الامتحان . . اتخذ المشاكسة سلاحا ضد وقار المجلس،

وقد كنت في انتظار مريض بخطوات بطيئة ورأس مطأطأة كما هو شأن المصابين بالاكتئاب - حسب التقرير الذي بلغني من المستشفى- .

جلس قُبالتي قبل أن آذن له بذلك، كانت نظراته حادة فيها من الذكاء ما فيها من التحدي .

سألته : هل أنت متزوج؟

قال بنبرة تهكمية :

- حسب الضرورة . .

فاجأني جوابه، لكنني واصلت :

- ماذا تعني بالضرورة؟

أجاب : أكون متزوجا عندما تتطلب ضروريات الحياة الاجتماعية ذلك وأكون أعزبَ لضرورة الشعر .

- أنت إذن شاعر؟

- يمكن القول أنّي شاعر ناطق. .

- وهل هناك من شاعر غير ناطق؟

- كل منّا يحمل شاعرا بداخله، بعضنا ناطق والبعض الآخر صامت.

لم تَرِد هذه الصفة في التقرير الطبي. كانت مهنته الرسمية أستاذا جامعيا.

أحسست أنه سيتعبني. . لكننا لا نصادف كل يوم مريضا شاعرا مستفزا بهذا الشكل.

سألته بطريقة روتينية:

- أتعرف لماذا أنت هنا؟

أجاب بعد هنيهة صمت:

- أنا هنا بحثا عنّي. . أليس هذا وكر التّائهين؟.

ثم أضاف بالفرنسية وبصوت خافت، كمن يسرّ بشيء مخجل، اعترافا من سيغموند فرويد لصديقه ويليام فلييس:

« Celui de mes malades qui me préoccupe le plus, c'est moi même. »

نجح في جعلي أتساءل مع نفسي إن كان حقا «الذي يشغلني أكثر، من بين مرضاي، هو نفسي ذاتها» لكني تجاهلت جوابه واستطردت:

- أنت هنا لأنك حاولت الانتحار.. أليس كذلك؟

ردّ بشيء من السخرية:

- الانتحار ظاهرة كونية وكلنا ينتحر بطريقته الخاصة.

أعدت السؤال بصيغة أخرى:

- لماذا قرّرت أن تضع حدّا لحياتك؟

- لنقل إن الحياة قررت أن تضع حدّا لي..

- أهروب هو؟

- لا.. هو إقدام..

وضع يده على جبينه كمن يحاول تذكر شيء ما، ثم رفع عينيه نحوي، وكأنه يخاطب العالم بأسره، مسترسلا:

«لم يسبق أن كتبتم رسالة عشق
أو فكّرتم في الانتحار
فكيف، إذن، تجرؤون على قول إنّكم عِشتم.»

هزتني الكلمات فلم أستطع كبح فضولي:

- هل هذه الأبيات لك؟

- لا، إنها لشاعر البوسنة عزّت سرايّيج.. لكنّي تبنّيتها بجدارة.

كلمّا فتحت بابا أَغْلَقَهُ أو فتح أبوابا أخرى تجعلني في حيرة من أمري..

كان آخر مريض أستقبله بعد يوم شاق، لذا قررت أن أحسم الأمر.

وبنبرة الطبيب الذي يعرف مصلحة مريضه أكثر منه، قلت:

- أنت هنا لأساعدك على فهم نفسك أكثر، ومعرفة الدوافع التي جعلتك تعزف عن الحياة. بإمكاننا بدء العلاج النفسي وفق حصص أقترح أن تكون مرتين في الأسبوع، طبعا إن كنت موافقا.

- هل لي ترف الاختيار؟

- نعم.. لكن عودتك لعملك تتوقف على تقريري الطبي.

- أفضل إذن أن أكون بطلا بدل أن أكون مُكرها. متى نبدأ؟.

وهكذا أنهى اللقاء الأول لصالحه.

لم أستطع أن أحدد إن كان هذا اللقاء أو ما يسمى بـ«التحويل» في علم النفس سلبيا أم إيجابيا. أحسست فقط أنني أمام مريض غير عاديّ.

وعندما نام كل مطمئن، وجدتني أمام الكمبيوتر أبحث عن اسمه ضمن لائحة الشعراء على شبكة الانترنيت.

بدا وكأنه قد غرق في بئر من السواد..

جاء صوته بعيدا، ثقيلا.. ثقل الذاكرة:

«ودعت طفولتي في العاشرة من عمري عند وفاة والدتي إثر الحادث الفظيع..

لازلت أسمع صراخها وهي تردد دون انقطاع: اِحذر.. اِحذر.. أنت سكران، وحيد معنا. وهو يقهقه بطريقة هستيرية ويتلاعب بالمقود ويسرع.. يسرع كهارب يجذبه الضياع. ويقول: «يا لك من امرأة مزعجة.. تمتّعي بالسرعة.. ما أحلى الانطلاق».

فقد السيطرة على السيارة وامتزج صراخنا بدويّ الاصطدام مع شاحنة قادمة من الاتجاه المعاكس.

فتحت عيني على بياض غرفة بالمستشفى.. تؤلمني كل ذرة من جسدي وساقي اليمنى في الجِصّ.

ناديت: ماما.. ماما..

لماذا لم أمت ساعتها؟ لماذا لم أمت بدلا منها؟
آه كم تمنيت موتي يومها».

تصبّب عرقا وهو يحاول أن يلملم شظايا طفولة تكسّرت كقنينة النبيذ الذي كان يُدمنه والده.

همَمْت أن أقول شيئا، لكنه واصل وكأنه يحدّث نفسه:

«كانت سيدة التضحيات، تعيش من أجلي، تتحمل عنف والدي ونوباته.. كنت وحيدها ودنياها.

كانت الشمس التي تداعب وجهي كل صباح ولا تغرب قبل أن أنام.

تحبّ والدي حتى في حالاته الأكثر تدمّرا، تختلق له الأعذار، تدعو له بالهداية وتغضب لو انتقده أحد.

كانت كل شيء جميل..

مبهرة كالألعاب النارية التي تشق الظلام..

رحلت.. فسادت الحُلكة».

صمت من جديد، فرك عينيه كطفل يحاول الرؤية في الظلام. ثم تمتم:

«أول امتحان نجتازه هو الفطام.. لا تتعب الحياة من فطمنا ممّن نحبهم، وكم اختبرنا من طرق للفطام ولا زلنا نتعلم.»

تذكرت والدتي، لا شك أنها تنتظرني لتناول الغذاء.
أحسست نحوها بفيض من الامتنان.

قلت بجدية يتوارى خلفها انفعالي:
- انتهت الحصة، موعدنا يوم الخميس المقبل.

بقي شاردا للحظة وهو ينظر إلى الفراغ.. ربما يتساءل كيف ألقي به في اليمّ، أدعه يصارع الأمواج وأنسحب مع أول قارب يعبر.

قبّلتُ والدتي بحرارة.. حضنتها.. حضنت الجسد النحيل. أصبحت كتلة من عظام ينخرها الروماتيزم. وحدها ابتسامتها ظلت يافعة ناصعة.
- لا بد أن الدكتورة جائعة؟
كانت تناديني دائما بالدكتورة منذ سنتي الأولى بكلية الطب.
قلت مع نفسي: كل جوع يهون إلا جوع الحب يا حبيبتي.

بأنامل رعشى فتحت ديوانه الأول بعد أن استوقفني العنوان طويلا :

«شظايا الشمس» .

عن أية شمس يا ترى يتحدث؟ وكيف تتشظى الشمس؟

قال عن أمه : «كانت الشمس التي تداعب وجهي كل صباح ولا تغرب قبل أن أنام» .

فكرتُ . . نادرا ما ينجو الكاتب من السيرة الذاتية في عمله الأول .

في الصفحة الأولى يُطل كالشروق «إهداء» :

«إليها . . حيث لا غروب» .

تليه في الصفحة الموالية عتبة استهلال لخورخي لويس بورخيس :

«إننا نحسّ بالشعر كما نحس بقرب امرأة، كما نحس بجبل أو خليج . إن كنا نحس به دون وساطة، فلماذا نميعه بكلمات أخرى . بكلمات لا بد أن تكون أضعف من أحاسيسنا . »

تصفحت أوراقه واحدة واحدة وأنا أبحث بين السطور عمّا يساعدني على سبر أغوار ذاته.

كلماته قطرات عطر معتق.. تتسرب عبر المسام.. تستنفر الحواس.. لا تدع لك حيزا للهروب منها.. تلبسك، تضمك، تؤلمك، تبكيك.. تلقيك أرضا عند قدميها.. وتطلب أنت المزيد.

وكمن يزيح غشاوة عن عينيه ويبصر لأول مرة.. تحدق بملء عينيك، بجوارحك، تتحسس كثافة هذا السواد الذي يخرج من النص ليتسرب إلى نفسك أنت القارئ المتشبث بدفء سرير مريح حيث تداري أزماتك الوجودية بعيدا عن البؤس الحقيقي للوجود.

وتتساءل ماذا لو كانت كلماته بحجم أحاسيسه؟

«رويدك يا امرأة
ما كنتِ
ولن تكوني البديل
فبعد رحيل الشمس
لا يُرهبني رحيل».

تحضر الشمس / الأم بغروبها.. مُعلنة أننا «لا نشفى من طفولتنا»..

أكاد أراه خلف السطور يُضمّد بالقلم ما ينبض حيّا بداخله، تماما كما تُضمِّدُ الجراح بقطع الشاش الطبّي.

تحمل أشعاره من السوداوية ما يشدّني.. نجحت في تدميري.. ذاك الدمار الجميل الذي أعشقه والذي يغذي القارئ ويرمّم دواخل لا تستقيم إلا بالحرف.

أعادتني لسنوات صبايَ البعيد حيث كنت أكتب محاولات في الشعر والقصة يقرؤها أستاذ اللغة العربية على مسامع الفصل.. كم كنت فخورة «بإنجازاتي الأدبية» أيامها، قبل أن تشغلني دراسة الطب عن الكتابة وأغوص في رتابة الحياة اليومية.

أتساءل الآن، بأسف، كيف استطاعت مقررات كليات الطب بثقلها أن تجرد الطبيب من كل الغذاء الروحي الذي يحتاجه كي يظل إنسانا هو المطالب بتطبيب الإنسان؟

«تريّثي قليلا
يا امرأة العتمة
إنّي لأسمع الزمن
حصانا جامحا
يركض خلفنا»

أقرأ.. وأقرأ.. وأسئلة تسّاقط كحبات المطر تبلل فضولي.

عن أي امرأة يتكلم؟

أغبطها.. أغبط كل امرأة مُلهِمة يحتفظ بها الكاتب في أرشيف القلب.. بعيدا عن عيون الناشر.. لتظل حقوق الإلهام محفوظة.

«أين لي بكأس
تصرع هذا الدوار
وأنا أتأرجح
بيني وبيني
صحو نهديكِ
لا يُغريني»

أقرأ.. وأقرأ.. أتذوق كل كلمة بلذة شبه شهوانية، كمن صام الدهر، آه من متعة القراءة.. كيف استطعت أن أستغني عنها؟ تراني نسيتُها.. كما نَسيَتْني.

لم أنتبه إلا وأنا أسمع صوت حركة بالبيت.. كانت أمي تتأهب لصلاة الفجر.

«يُهيّأ لي أنني لم أكره أحدا في حياتي مثلما كرهتُ والدي. .

أضحينا بعد وفاة أمي مثل عدوّين مُجبرين على العيش تحت سقف واحد.

كنت أحمّله مسؤولية موت والدتي، ولم تزدني محاولات تقربه منّي وتعويضي عاطفيا إلا نفورا.

كان مدمَّراً، يقضمه الإحساس بالذنب.

أقلع عن الكحول. . ألقى بقنّيناته في الزبالة، كما يلقي مجرم بسلاح الجريمة في بئر مهجورة، ثم دخل في حالة من العزلة والتصوف والتقوى لم تكن لتغفر له عندي.

بالغ هو في الصلاة والعبادة حدّ التطرّف. . وبالغت أنا في العصيان حدّ المعصية.

وعندما تزوج بعد ثلاث سنوات من تيتّمي بامرأة، محتجبة، تعرف الله، كفرت أنا بكل البشر ودخلت معها في حرب مُعلنة، أشهرت عليها سيوف مراهقتي ودخلت في جهاد ضد جُهدهما لاستقطابي من جديد.

في عامها الأول أنجبت أخي الذي كنت أرى فيه الضحية المقبلة رغم ما كان يتمتع به من عناية وحب.. ثم جاءت بعده أختي. وكلما كبرت الأسرة، كبر إحساسي بالدخيل ومعه تشبثي بهدف واحد: الهجرة إلى الخارج.

هربت من اليومي إلى شرنقة الكتب والكتابة. وسكبت كل طاقاتي وثورتي في الدراسة والتحصيل.

نلت شهادة البكالوريا بتفوق. رحلت إلى باريس. اخترت شعبة الفلسفة نكاية في والدي وتعطشا لكل ما بوسعه أن يفتح أمامي آفاقا جديدة.

شكلت هجرتي شبه قطيعة بيني وبين والدي.. لا نتبادل الأخبار إلا لماما. وحتى العطل الصيفية كنت أستغلها في السفر واكتشاف العالم».

وأنا أستمع إلى محاكمته لوالده، تذكرت والدي الذي غادرنا منذ تسع سنوات فأحسست بمدّ أسود يجتاحني.

كم رهيب أن تحسّ في أعماقك أنك تفتقد شخصا حدّ الألم مع اليقين الثابت بأنك لن تحضنه أبدا.

أفتقد أنامله تلاعب ضفائري وأنا طفلة.. نظرات الفخر في عينيه وأنا أؤدي قسم أبقراط..

آه، من الفراغ المميت الذي يخلفه موت الأب، إذ يظل رغم مرور السنين يحفر، ويحفر..

قرر هو أن يستأصل والده منه كعضو ينخره السرطان.. كي تستمر الحياة.

لكن الموت استئصال دون قرار مسبق.

انتبهت أنني لم أعُد أسمعه..
سألته بحماس من يقفل نافذة بعد هجمة ريح:
- ماذا عن علاقتك بزوجة والدك؟
- أظن أنني كنت مؤهلا نفسيا لكره كل امرأة تأخذ مكان أمي، وإذا أضفنا أن وضعها في الأسرة يجعلها حتما في صفّ والدي فهي مؤهلة مرتين.
- أما حاولتْ هي التقرب منك؟
- بلى.. لكن كل محاولاتها باءت بالفشل، الغضب كالحب.. أعمى.
- كيف ذلك؟
- كنت أرى في زواج والدي خيانة لأمي، وتعاطفي مع زوجته كان سيجعل مني خائنا أنا أيضا. كنت أتعمد المشاجرة مع الجميع حتى أطرَد من البيت لأذهب عند جدتي (من جهة أمي) التي كانت تساندني بالطبع. لكنها توفيت بدورها وأنا في الرابعة عشر من عمري. ولم يعد لي بيت يأوي غضبي.
ولولا تفوقي في الدراسة وتشجيع المدرسين لي لكنت قد عانقت الانحراف كرد فعل.
- وكيف كانت علاقتك بإخوتك؟
ردّ بمرارة:
- ليست الأخوّة مجرد علاقة أسرية إنها إحساس أعمق من ذلك.

- ماذا تقصد؟

- كان لي أخوة وأخوات من أجناس وأوطان متعددة، في حين لم أشعر يوما بعلاقة قرابة تُجاه أبناء والدي.

أصبحت أجوبته مقتضبة يدرجها على شكل تحليل صحيح ودقيق للمواقف، لا يترك لي مجالا لممارسة خبراتي المهنية. وكأنه يحاول إشعاري بقدراته على فهم النفس البشرية. أو لربما لاحظ شرودي فلم تعد له رغبة في البوح.

انتهت الحصة ليبدأ صداها في كل منا.

دخل بخطوات خفيفة. انتبهت أنه قد حلق ذقنه وأن قسمات وجهه لا تخلو من وسامة. أخذ مكانه في الكرسي المقابل لفضولي منتظرا بأدب أن أفتتح الجلسة.

قلت: لنعد إلى أيام الدراسة.. هل كانت لك صداقات تذكر؟

أجاب بصوت هادئ:

- عوّضتُ روابط الدم بروابط الصداقة. إنها أمتن وأعمق.. يكفي أننا نختارها بمحض إرادتنا.. نتعلم منها ونكبر بها. حظّي أني كنت من جيل عانق القضايا الكبرى لزمنه قبل أن يبلغ النضج الضروري لاستيعابها. جيل تعطش للمعرفة وطرح الأسئلة. كان لي حينئذ صديق يدعى إبراهيم يكبرني بثلاث سنوات، طالب بشعبة الفلسفة بالرباط. نلتمّ حوله، كلما جاء في عطلة نهاية الأسبوع لزيارة والديه، كما يلتمّ مريدون حول شيخهم.. نناقشه بجدية.. يصحّح معلوماتنا، يفتح عيوننا وأفكارنا على العالم. يمدّنا بكتب الفلسفة والاقتصاد والآداب. عرّفنا بالماركسية، بالفكر الشيوعي، بنيتشه.. وبالقضية الفلسطينية. كان ينتمي إلى

تنظيم يساري سرّي يدعى «إلى الأمام». استقطبنا واحدا واحدا ونحن فخورون بالدور العظيم الذي بدأنا نلعبه للدفع بعجلة التاريخ إلى الأمام. نلتقي في سرّية تامّة ونوزّع المناشير في المؤسسات التعليمية، نتقدم صفوف الإضرابات الطلابية مثل الأبطال.

كان لنا هدف وآمال وأحلام كبرى، أكبر من وعينا السياسي آنذاك.

زاد نشاطي السياسي من حدّة صراعي مع والدي الذي غرق في تطرفه الإسلامي. كان يهون عليه كل شيء إلا كوني شيوعيا، كان يقول لي «ليتك كنت لصّا أو مجرما أو معوّقا أو مريضا أو ميّتا حتى.»

توقف ليسترد أنفاسه ثم أردف بنبرة جادّة:

«كمناضلين محترمين، كان علينا أن نعطي المثال في النزاهة والتضامن.. كنا منضبطين، ندرس بجدّ لنكون في مستوى المسؤوليات الجسيمة التي تنتظرنا.. جميل أن يكون للمرء مبادئ يؤمن بها.. يدافع عنها حتى الموت.

وجاءت حملة الاعتقالات وأنا أجتاز امتحان البكالوريا. اعتُقل إبراهيم، الرفيق والأب الروحي ومعه مناضلون آخرون. ساد الهلع وسط صفوف الرفاق وانزوى كل في بيته. انتهت السنة الدراسية وعجّلت بسفري إلى باريس.»

صمت قليلاً مُلمْلما أفكاره قبل أن يواصل:

«سأبقى مُمتنا طوال حياتي لإبراهيم الذي صمد ولم يعط أي

اسم من أسماء الرفاق الذين كان يؤطرهم رغم كل التعذيب الذي تعرض له.

كم كنت أفتقده في باريس، أفتقد جلساته ومناقشاته ومرحه وينتابني أحيانا إحساس بالذنب تجاه تضحيته الجسيمة من أجلنا جميعا.

مكث إبراهيم عشر سنين في السجن، أكمل خلالها دراسته..

واستأنفت أنا نضالي على نحو آخر بعيدا عن السياسة بمفهومها الحزبوي.

أصبحت أناضل من أجل الحرية وحقوق الإنسان.. حرية الرأي، حرية العقيدة، حرية الإبداع، الحق في الاختلاف.. وغيرها.»

لم تكن شخصية صديقه إبراهيم هي الموضوع ولكنني لم أستطع كبح سؤال

نط كزلّة فضول:

- وهل التقيت صديقك إبراهيم بعد خروجه من السجن؟

- كنت أتسقّط أخباره من بعيد وقد انقطعت عن المغرب لسنوات، لكنني عندما عُدت السنة الماضية لأستقر في الدار البيضاء، بعد وفاة والدي، صادفته في مقهى مع أحد الأصدقاء. سعدت كثيرا بلقائه.. بدا أكبر سنّا ممّا هو عليه، رب أسرة، يشتغل أستاذا للفلسفة.. ظل وفيا لمبادئه رغم ما يُبديه من تبدّد أوهامٍ واعتزال لعالم السياسية.

أضاف كما لو كان يتكلم عن نفسه:

«ثمة تجارب في الحياة لا يمكن أن نخرج منها سالمين.»

أنهيت الحصة بهذه الجملة المثقلة بالدلالات.

ذكرتني شخصية إبراهيم بأحد المعتقلين السياسيين الذي تعرفت عليه، منذ سنتين تقريبا.. كنت قد زرته بالمستشفى تلبية لرغبة أحد الأصدقاء الذي أخبرني أنه يعاني من مضاعفات مرض السكري على عينيه وكليتيه، وقد يخضع لعملية بتر إحدى قدميه، وطلب منّي أن أعمل على رفع معنوياته.

كنت أبحث وأنا في طريقي إليه عن كلمات تبلسم جراحه، وإذا بي أمام شخصية فريدة من نوعها لا تعرف الاستسلام ولا الخضوع. لم ينل السجن بشتى أشكال التعذيب من معنوياته وكبريائه.. شيق الحديث.. لم يكلمني عن مرضه.. حدثني عن الإبداع، عن الفن، عن الجمال.. فنان تشكيلي استطاع أن يقهر سواد السجن بألوان فرشاته.

سألني عن نفسي وعن هواياتي خارج الطب، كان أول من بُحت له باهتماماتي القديمة بالكتابة وبتجربتي المتواضعة في هذا الميدان. سألني هل أفكر في تطويرها ونشرها؟ قلت مرتبكة «أخاف ألا تُعجب أحدا» أجابني بثقة من صفّى حساباته مع العالم: «المهم أن تعجبك أنت».

خاطب أنوثتي.. سمعني أنا التي جئت لأسمعه.. غادرته وأنا أكثر ثقة بنفسي.

سألت يوما عن أخباره.. قيل لي بأنه في منتجع للنقاهة بضواحي باريس.

ترى ما أحوالك الآن يا عبد اللطيف؟

رغم تعبي الشديد لم أعرف طريقا للنوم..
جلست فوق السرير وأخذت جهاز التسجيل لأعيد سماع ما باح به في الحصة السابقة وأنا أسأله عن علاقاته بالنساء.

«هزمتني الأنوثة في أوّل حبّ عرفته في باريس..
أحببتها بكل ما يفرضه الحرمان من حدّة. كانت لطيفة معي، أصبحنا أصدقاء بسرعة. كانت طالبة بالمدرسة العليا للفنون الجميلة، اكتشفت معها باريس الفن: متحف اللوفر، متحف بيكاسو، متحف رودان وغيرها. كثيرا ما كنا نقضي يومنا بحديقة متحف رودان أترجم لها بعض أشعاري وتحدثني عن تاريخ الفن، عن لعبة الضوء والظل وعن بلاغة الألوان.
مرهفة الحس، حالمة، تمكث الساعات أمام تحفة من تحف رودان المؤثثة للحديقة في تأمل تام وكأنها تحدثها. لم تكن تعلم أنها تحفتي الأجمل.. تمنيت لو كانت لي موهبة رودان لأخلد تقاسيم وجهها.. أحببت عفويتها ودهشتها الطفولية أمام الأشياء العادية كما لو كانت أشياء خارقة.

ارتبكتُ كثيرا يوم طلبت مني أن أكون «موديلا» لها.. كانت علاقتها بالجسد شفافة، تنظر إليه بعين فنانة كما تنظر للوحة أو مجسم بشيء من الحياد..

صالحتني مع جسدي.

شجعتني هذه الحميمية التي يخلقها العريّ على الإفصاح لها بما بقلبي وكان هذا بعد عام تقريبا من صداقتنا.

بقدر ما أحببتها بقدر ما كانت صدمتي كبيرة وهي تقول لي، باكية، إنها آسفة جدا.. وإنها تُعزّني كثيرا.. وإنها لم تصادف أبدا صديقا مخلصا مثلي.. ولكنها سحاقية.. تحب صديقتها التي تقاسمها نفس الشقة.

يا للخسارة!

وأنا مراهق كانت أفظع شتيمة توجه لرجل هي نعته «بالمثلي».. لم يخطر لي أبدا ببال إمكانية وجود نساء يمكنهن الاستغناء عن الرجال.

أحسست وأنا الفخور برجولتي وبفحولتي الشرقية عدم جدواها أمام امرأة فاتنة، رقيقة.

ربما كان ألمي سيكون أقل لو كانت تحب رجلا آخر، ففي هذا اعتراف ضمني برجولتي، كان سيكون لي ترف الغيرة.. إذ كيف لي أن أغار من أنثى؟

يا لغبائي.. أنا البدوي.. كم كنت مطمئنا لكونها تعيش مع صديقة، ولا يتردد على بيتها أصدقاء من جنس الذكور.

كانت هذه أول صفعة وجهتها إلي المرأة: لست ضروريا لحياتها الجنسية.

وكان أول درس لقنته لي «مدينة الجن والملائكة»: الاختلاف.

درس أفادني كثيرا أنا الطالب في شعبة الفلسفة بالسوربون. تعلمت كيف أناقش كل شيء بدءاً من المسلمات دون أن أصدر أحكاما مسبقة وأن أتقبل الرأي الآخر».

أوقفت جهاز التسجيل.

أخذت من حقيبتي ديوانه الثاني «وأدُ التفاح» وعدت لقصيدة كانت قد استوقفتني من قبل:

«هزَمَتْهُ الأنوثة
يوم تورّط
في امرأة
تحبّ النساء.»

باحت لي إحدى صديقاتي مرّة وأنا أسألها عن سبب طلاقها من زوج عاشت معه خمس عشرة سنة وأنجبت منه ثلاثة أطفال، أنها قد ضبطته مع صديق له في وضع مشبوه بغرفة نومهما. وأنها تمنت ساعتها لو ضبطته مع أنثى.. ربما استطاعت أن تسامحه وتستمر معه.. لكنها شعرت أن خيانته لم تكن لها وحدها فقط بل كانت خيانة لكل نساء العالم.. وكان عليها أن ترد كرامة واعتبار كل النساء عبر التاريخ.

لم يشف الطلاق غليلها، بقيت تطارده وتتهجم عليه أمام الملأ، أصبح هاجسها أن تدمّره ما استطاعت.

لكن أن يبوح لي رجل بهزيمته أمام الأنوثة، فذلك ما لم أصادفه من قبل.

الرجل العربي يحمل من إرث القبيلة ما يجعله يفضل الموت على أن يصبح عاجزا جنسيا أمام امرأة. فكيف أن ترفضه هذه المرأة وتفوت عليه فرصة إثبات قدراته؟

كيف تحسسه بعبثية عضوه هو الذي يبرر دونيتها بانعدام هذا العضو لديها؟

لم أكلف نفسي قبل هذه اللحظة عناء التفكير بجدية في كل هذه الحالات التي ندعوها شذوذا. فهي تمارس حياتها الجنسية في سريّة معتمة وتجد لها وضعا اجتماعيا مقبولا كالزواج مع الجنس الذي ترفضه جنسيا.

فمؤسسة الزواج بمجتمعنا تصلح لأكثر من تنشيط مموّلي الأعراس وتجديد النسل.

دخلت أمينة، الممرضة المساعدة، تخبرني أن السيد وحيد الكامل قد اعتذر عن موعد حصة اليوم لأنه يشكو من زكام اضطره لملازمة الفراش. سألتها: «متى اعتذر؟». قالت: «في الحقيقة تكلمَت زوجته منذ نصف ساعة واعتذرت بدلا عنه».

عادة استغل أوقاتا كهاته لأنصرف مبكرا أو لأقضي بعض الأغراض العالقة لكنني اليوم أحسست بشيء يشبه الخيبة.

مكثت بمكتبي وبحركة آلية أخذت جهاز التسجيل وبدأت أعيد سماع الحصة الماضية.

أتى صوته خافتا يصُمّ آذان الغياب.. ما عرف مكتبي غيابا بهذا الحضور.

«استمرت علاقتي بماري ملتبسة.. صعب أن أصادقَ امرأة أشتهيها، تجتهد يوميا في تعويضي عنها بتقديمي لأكبر عدد من صديقاتها.

وهكذا دخلت دون جهد ودون أن أدري كيف في علاقات

متعددة، متحررة، قصيرة وبلا وعود. أصبحت قناصا ماهرا، أتقن فن المطاردة، فن الغواية، وفن الانسحاب.. كمن يحاول أن يبرهن لنفسه عن شيء.

أتراني كنت أبرهن لها.. هي التي لا أهمُّها في شيء.

وأنا أبحث عنها في كل النساء، أدمنت الجنس، أصبحت محترف السرير.. مثله،

أعاني من فراغ مهول بعد كل امتلاء.

كانت لي كل النساء ولا واحدة.

كثيرات أحببنني، لكنني كنت عاجزا عن منحهن أكثر من زبد أبيض، ذاتَ مدّ، كبحر عقيم.

ولأن ليل باريس السخي بنجومه بخيل بالقمر.. اكتفيت بنجوم لا تعد. ساعدني على ذلك الجو العام للسبعينات، بكل ما حمل من تحرّر جنسي، ومن نضالات الحركة النسائية، ومن وعي سياسي وفلسفي.

عجز الجنس عن إشباعي فبحثت في الكحول عما يروي جفاف القلب.

وكان انجرافي نحو الهاوية دون رجعة.. فقدت عملي الذي كنت أعيش منه وأسدّد مصاريف دراستي.

وككل الصدف الجميلة التي يضعها القدر العطوف عند منعطف الطريق ظهرت سوزان كملاك من السماء بكرمها العاطفي وفيض إنسانيتها. كانت تعمل بقسم شؤون الطلاب بإدارة الجامعة.. كانت تؤمن بنباهتي وقدراتي الفكرية.. ساعدتني كثيرا.

كان حبها لي عطاءً مطلقا دون مقابل. بفضلها أقلعت عن الكحول وأكملت دراستي.
سوزان هي زوجتي..»

أوقفت الجهاز.
سرحتْ بي أفكاري نحو هؤلاء النساء اللواتي ينذرن حياتهن لحبّ رجل واحد.. حبّ فيه من الأمومة ما يجعلهن غافرات لكل الخطايا.
يقول فرويد أن الرجل يتزوج طبق صورة الأم.
سوزان هاته تشبه أمه في كرمها العاطفي وعطائها الذي لا ينتظر جزاء..
ألهذا السبب تزوجها؟
هل استطاع أن يحبها كأنثى، كعشيقة، أم أن شعوره بالامتنان لامرأة أنقذته من الضياع هو الذي جعله يرتبط بها هذا الارتباط الأبدي؟

سرحت فيّ.. كيف لم أستطع أنا أن أستمرّ مع زوج كان يريدني أمّا له؟
كان يردّد على أسماعي كلما ضمّنا ركن حميمي أنه يحترمني كثيرا، يقدرني، وأنه فخور بي.. كل العواطف النبيلة التي يمكن تعميمها على زملاء العمل والأصدقاء.. وغيرهم. أنا التي تمنّيت أن أسمع منه ولو مرة واحدة أنه يحبّني، مفتون بي، يشتهيني كما لم يشته امرأة من قبل..

رجل لم يستطع خلال عشر سنين من الزواج أن يلمس قلبي . .

هو جرّاح قلب ناجح يقضي يومه بين الأذين والبطين ويعرف كل أنّة للقلب من خلال تخطيطه الكهربائي . . لم ينجح في تحسّس نبضي .

تقاسمنا الطموح نفسه، التحدّيات نفسها واكتشفنا يوم نجحنا بتفوق، مهنيا واجتماعيا، فظاعة فشلنا العاطفي .

وأنا هل أحببته؟

أجل، أحببته بكل ما يفرضه الحب الأول من تفان، وصدق، ورومانسية مفرطة، وأحلام تمتد العمر طوله . أحببت ذكاءه، وعقلانيته، وموضوعيته . .

ظننت أنه على صواب في كل ما يعمل وما يقرر لنا . كنت التلميذة المنبهرة أمام أستاذها . .

علّمني الصرامة ونسيت أن أعلّمه الاندهاش،
علمني النظام ونسيت أن أعلّمه جمالية الفوضى،
علمني الوضوح ونسيت أن أعلمه سحر الغموض،
علمني النّهار ونسيت أن أعلمه الليل .

وشيئا فشيئا أصبحت حياتنا ببرودة أدواته الجراحية . . بيتنا كقاعة العمليات، معقم من كل حب . .

إحساس فظيع أن تمارس الحب مع شخص لا يخلع قفازاته المطاطية لملامستك .

أكان يحبّني؟

توصلت بعد سنين من الحفر النفسي إلى أنه كان يحب كل ما أمثّله، يحب كوني زوجته التي تحسّسه بأهميته في مجتمع لا يسمح بالنجاح خارج مؤسسة الزواج.

أخرجني صوت الممرضة من غياهب الماضي.
أيمكن أن أنصرف الآن؟
قلت: طبعا، . . طبعا.

في الطريق إلى بيتي أحسست برهبة تنتابني وأسئلة تلحّ علي:
كيف أعادتني حصص علاجه إلى نفسي؟
أتراني أحلله أم إنه يحللني؟

كنت أتملى خرائط المطر على زجاج النافذة حين دخل بمعطف أسود، شعره مبلل كأنه يخرج لتوه من غيمة. تبادلنا ابتسامة عابرة ثم جلس دون أن يتخلّى عن معطفه.

بادرت بالسؤال:

- هل أنت سعيد في زواجك؟

أجاب وهو يمرّر يديه على شعره هاربا إلى جواب عام:

- السعادة حرية.. وهي أكبر من أن تقرن بقيد.

تعمّدت أن أعيد السؤال بطريقة مباشرة أكثر:

- طيب، كيف هي علاقتك بزوجتك؟

- سوزان إنسانة رائعة خارج مؤسسة الزواج.. المشكلة في المؤسسة ذاتها.. اليومي يقتل الحب، والرتابة ضد الإبداع.. الشاعر طائر حر والزواج قفص..

- لماذا اخترت إذن أن تظل في القفص؟

- لنقل إنّي في قفص ذي نافذة عريضة مفتوحة على السماء، يمكنني الخروج عبرها متى شئت والعودة متى شئت.

- وزوجتك، هل تقبل بهذا؟
- هي امرأة ذكية تدرك أنه للاحتفاظ بالآخر لابد من منحه وهم الحرية.
- هل لك علاقات مع نساء أخريات؟
- وهل يمكن لامرأة واحدة أن تختزل كل النساء؟

لاحظ اندهاشي فأضاف مستشهدا بأوسكار وايلد:

« On devrait toujours être amoureux c'est la raison pour laquelle on ne devrait jamais se marier. »

تمتمت وأنا أردد في نفسي «يجب أن نمتنع عن الزواج حتى نظل في حالة عشق أبدي»:
- والحب؟ والوفاء؟
أردف موضّحا رأيه:
- أنا أومن بالوفاء في الصداقة، لا أومن بالوفاء في الحب.. واستمرار علاقتي مع سوزان يعود لكوننا أولا وقبل كل شيء أصدقاء.
العشق إحساس حي، كالإنسان.. يولد، يكبر، يشيخ.. ويموت. قد يهلك بحادثة طارئة وقد يصاب بمرض عضال ينخره.. كالغيرة مثلا أو حب التملك.

استقام في جلسته ثم استرسل كما لو كان يلقي محاضرة في الحب في أحد مدرجات الكلية:

«الحب حالات متعددة، يختلف باختلاف من نحب.. كلّ علاقة تضيف لك شيئا وكل حب يضيف لك شيئا.. وإن كان خسارة جديدة تضيفها لسجل خساراتك.. نحن نغتني بكل حب.. وإن كان يحمل معه بعض المعاناة وبعض الألم.. الألم خلاّق.. والشاعر لا يستطيع أن يبدع خارج الحب.. خارج الألم.»

يبدو خبيرا بعلاقات العشق، وقد أسس نظرية على مقاسه خارج الأعراف المسلَّم بها. فهمت الآن ما كان يعنيه بكلمة «حسب الضرورة» - في أول لقاء لنا- عندما سألته إن كان متزوجا؟

استطردت وأنا أطرح عليه - كتلميذة مبتدئة - سؤالا يهمّني شخصيا معرفة الجواب عنه:

- ألا تخاف الفشل في الحب؟

- الأسوأ، ليس أن نفشل في علاقة حب، بل أن لا نعيشها خوفا من الفشل.. ليس المهم طول المدة التي نقضيها معا، المهم حدّة اللحظات الممتعة التي نتقاسمها..

صمت قليلا كمن يتأمل ما سيقوله، ثم أضاف:

«الخلود ليس هو الامتداد في الزمن، بل هو الامتداد في أعماق اللحظة.»

لكن نبرة انكسار في صوته جعلتني أشك في أنه يحاول عبثا

إقناع نفسه بنظرية تضاعف من أزماته الوجودية. سألته:

- أما تعبتَ من التّجوال بين قصص حبّ لاتهمك منها سوى البدايات؟

أجاب بنبرة تشي بمرارة:

- أحس أحيانا بتعب شديد.. تعب من يعي مسبقا ثقل النهايات. قصيرة هي لحظات الاكتمال، نتمناها أبدية ونخافها متى حلت.. كعاشق الجبل يتسلقه عمرا ولا يمضي في القمة سوى لحظات.

كانت هذه لحظة الصدق التي فتح فيها قلبه على مصراعيه.

انتهى الوقت المحدد للحصة ومكثت لبعض الوقت ألمّ أفكاري بعد أن زعزع قناعاتي.. أنا الرومانسية التي أومن بالحب الكبير، بالحب الوحيد والأوحد،

بالوفاء المطلق.. قلت لنفسي: هذه نظريات تخدم الرجال.. يقنعون أنفسهم بها ليبرروا كل مغامراتهم خارج بيت الزوجية.. كذاك الزميل الذي كان يقول لنا «الزواج بمثابة الطريق السيار لابدّ من باحات للاستراحة حتى تستطيع مواصلة السفر».

مبررات لإخفاء عدم نضجهم العاطفي وقدرتهم على بناء علاقة دائمة قائمة على الاحترام المتبادل. الحب يتجدد بفضل إرادتنا في ذلك. قد يتغير، قد يتطور، قد يغيب كالشمس ليشرق من جديد..

وقد يكون في تعدد علاقاتهم بالنساء بحثا عن المطلق الذي نصبو جميعنا إليه.

لا زلت رغم انكساراتي أحلم كما الصبايا برجل يختزل كل رجال العالم.. أراني في عينيه امرأة تختزل كل نساء العالم.. في لحظة تختزل العمر.. تختزل الزمن.

على الرغم من معرفتي - تبعا لتقريره الطبي - بكونه لم ينجب أطفالا. سألته:

- هل لديك أطفال؟

بنبرة تحمل الكثير من اللامبالاة، أجاب:

- لا.. لم نستطع أن ننجب أنا وسوزان رغم عدم وجود سبب عضوي لذلك؟

استطردت وقد استفزتني لامبالاتُه تلك:

- هل يخلف عدم الإنجاب إحباطا لديك؟

أجاب دون تردد.

- حقيقة.. لا.

ثم أضاف موضّحا:

- تقول سوزان إن «الأبوة إحساس يولد عند الرجل مع أول مولود، في حين يولد إحساس الأمومة مع الأنثى». قد يكون هذا صحيحا وقد تكون علاقتي المتوترة بوالدي هي التي جعلتني أكبح رغبتي في أن أصبح بدوري أبا.. حقيقة لا أدري..

أحيانا، أحس أنني طفل يحتاج أن يستعيد طفولة سرقت منه . .
وفاقد الشيء لا يعطيه .

صمت قليلا قبل أن يستأنف :

- أعلم أن زوجتي تعاني في صمت من عدم وجود أطفال ببيتنا . . أفاجئها أحيانا تردد في حزن أغنية جاك بريل :

"Les vieux amants"

Et chaque meuble se souvient
dans cette chambre sans berceau
des éclats de vieilles tempêtes...

فاجأني وهو يغني بالفرنسية هذا المقطع من أغنية «العشاق القدامى» الرائعة بصوت رخيم دافئ وأداء متقن . .

قلت في نفسي، وأنا أنشد في صمت «كل متاع يتذكر، في هذه الغرفة الخالية من مهد، دويّ العواصف القديمة . . » :
الله . . هي فعلا أغنية جميلة، لكن صوته أجمل .

استأنف مباشرة كمن يتعمد إعفاءك من التعليق على شيء يدرك وقع سحره عليك :

«قد يبدو لك ما سأقوله أنانية منّي لكنني حقا أجد هذا الوضع مناسبا لي ككاتب وهو يخدم توقي للعزلة . . أنا أعتبر أن لي أبناء رمزيين . . الإبداع ولادة يختص بها الجنس البشري في حين أن الإنجاب ولادة تشمل كل أصناف الحيوانات .

كلنا ينشد الخلود، المبدع عبر إبداعاته، وغير المبدع عبر ذريته . . كل منا يودّ أن يترك أثر خطواته فوق قشرة العالم» .

أحسست بموجة من الحزن تخترقني.. أهو صوته الشجي يعزف على أوتار الحنين، أم ما قاله عن سوزان التي أقاسمها نفس المعاناة. أم لأنني، بكل بساطة، ممنوعة من الخلود مادمت يائسة من إنجاب أبناء حقيقيين كانوا أم رمزيين.

انتهت الحصة، وبدأت ذاكرتي، كالعادة بعد كل لقاء معه، تنضح عرقا وقد جعلها تركض على إيقاع بوحه.

انتظرت الكثير من الأمومة..

فإذا بها نزيف آخر،

وتلك حكاية أخرى..

«القصيدة بنت كلب، ماكرة، جشعة، عصيّة، لعوب كمومس تأخذ بثأر كل النساء اللواتي ضاجعتهن ذات اصطدام».

هكذا بدأ الكلام قبل أن أوجه إليه أي سؤال.

كان يبدو مرهقا، كمن قضى الليل في ترويض قصيدة متوحشة.

سألته بثقة من يعرف ضمنيا سبب تذمّره:

- متى انقطعت عن كتابة الشعر؟

قال دون أن ينظر إلي:

- نحن لا ننقطع عن الكتابة هي التي تقرر متى تأتي ومتى ترحل.. منذ موت والدي لم تجد القصيدة مبررا كافيا لزيارتي ولو لأداء واجب الرثاء.

واستأنف كمن يحدث نفسه:

«حادثة تجعل منك شاعرا، وأخرى تقرر أن الوقت حان لكي تتقاعد».

وأنا أداري بعض الحزن سألت:

- كنت تود لو تكتب رثاء في والدك؟

- الرثاء رحمة لكاتبه وأنا لا أستحق هذه الرحمة لفرط ما تمنيت موته في السابق.

- أهناك شيء كنت تود قوله له قبل وفاته؟

- كنت أود أن أسأله لماذا؟

- لماذا ماذا؟

- لماذا أنا؟ لماذا هو؟ لماذا نحن؟ ومن دمّر من؟ ومن ضحية من؟..

- متى رأيته آخر مرّة؟

- منذ سنتين كنت قد زرته برفقة سوزان، وكانت مبادرة منها لخلق تواصل بيني وبينه، مقتنعة أن الحل لعدم إنجابنا هو مصالحتي مع صورة الأب المجهضة في أعماقي. قضينا شهرا كاملا بالمغرب. أحبّته سوزان وبادلها نفس الإحساس. كانت دائما تقول لي إنني لا أعرفه وإن غضبي وسخطي عليه وكل العنف الذي خزّنته منذ وفاة والدتي وكل الألم.. قد منعوني من أن أراه بعين موضوعية، وأنه برغم كل ما أدّعي، موجود بدهاليز قلبي المعتمة بعد أن أخذت والدتي معها المصباح. وإن على قلبي المعتاد على الظلام أن يفتح نوافذه.

- وهل فتحتها؟

- حاولت جادا وكنت قد بدأت فعلا في اكتشاف شخص آخر، خاصة وأن سوزان قد اقترحت أن أراسله بعد عودتنا إلى باريس.

- وهل تمّت بينكما المراسلة؟

- بدأنا، مثل عاشقين جديدين، مراسلة خجولة ولكن موته المفاجئ جاء ليضع حدّا لعزائمنا. . وعليّ الآن أن أعيش بثقل ما لم يُقل بيننا.

شعرت بحسرته تتسرب إلي، استأنفت محاولة التشبث بما تبقى لدي من موضوعية:

- ما هو سبب موته؟

- حادثة سير. . صدمه سائق سكران وهو في طريقه لأداء صلاة الفجر بالمسجد. . وكأن التاريخ يعيد نفسه.

عبرت غيمة تقاسيم وجهه وهو يواصل في تأمل:

- ثمة أشياء نتمناها بقوة فتحدث فعلا. . لكن مع بعض التأخير، بعد أن نكون قد غيّرنا رأينا وأصبحت أمنيتنا الثانية نقيض الأولى تماما. . وكأن القدر يعاقبنا على ما نبغيه من سوء للآخرين. لقد أحسست، وأنا أراه في حالة من الكبر و الوهن، بالخوف من فقدانه قبل أن أحضنه وأبكي على كتفيه. كانت نظراته تشي بطمأنينة داخلية. . غبطته عليها، يبدو متصالحا مع الحياة ولا ينتظر شيئا منها. لم يعاتبني مرة، ولم ينتقد اختياراتي. تخلى عن تطرفه السابق وعانق إسلام الرحمة والمحبة والتسامح. . وكل ما يشكل الجوهر الحقيقي لكل عبادة.

كان في تبنّيه العاطفي لسوزان نداء مضمرا لإعادة تبنّي من جديد.

بقي وحيدا بعد وفاة زوجته إثر مرض عضال، وكان كل من أخي وأختي قد تزوجا ويعيشان حياتهما الأسرية بعيدا عنه. لم تسمح له كرامته بالعيش مع أحدهما. قال لي يوما «عز الخيل مرابطها».

خيّم صمت كثيف، وسرح كل منا في دهاليزه الداخلية.

كسرت الصمت بسؤال بدا لي أن الوقت قد حان لطرحه:

- أتشعر أنك مذنب وأنك تستحق العقاب؟

- أعلم أنني لست الإله، ولكني أومن بحدوث ما نرغب فيه بقوة.

قلت كمن يلخص الموقف:

- كلنا تمنّينا موت شخص آلمنا ولو مرة في حياتنا، هذا إحساس إنساني إذ بين الحب والكراهية خيط رفيع. والكراهية حدّ الموت لا يولّدها إلا حب حدّ الموت. ولا أحد يموت بالتّمني. كفاك عقابا لنفسك على ذنب لا يد لك فيه. أنت لست مسؤولا عن موت والدك تماما كما أنه ليس مسؤولا عن موت والدتك.

همَمت أن أسأله عن الحوافز التي دفعت به إلى العودة للإقامة بالمغرب من جديد بعد وفاة والده، لكنني تراجعت تاركة له مجال التأمل وقد وضع الإصبع على جرحه الدامي.

تعمدت إنهاء حصصنا هنا وأنا أسترجع مقولة بالفرنسية لكاتب لا أذكر اسمه:

« Il suffit de culpabiliser quelqu'un pour en faire ce qu'on veut »

حقا «يكفي أن نجعل أحدا يحس بالذنب لنفعل به ما نشاء».

إحساسه بالذنب جعله يعاقب نفسه. وأي عقاب أكبر وأقسى من الإقلاع عن الكتابة بالنسبة إلى شاعر. الانتحار وسيلة لوضع حد لعذاباته وإحساسه بالفراغ المهول وبعدم جدواه خارج الشعر.

قلت وأنا أودعه عند الباب:

- ستجد التقرير غدا عند مُساعدتي، سوف أسافر أنا إلى باريس.

- أغبطك، سلّمي لي على شياطينها أما الملائكة فلن أحمّلك هذا العناء.

ثم استطرد بابتسامة ماكرة:

- أتظنين أنني قد شفيت فعلا من سوداويتي؟

وقبل أن أجيبه قاطعني، في محاولة لقراءة أفكاري، قائلا:

- ستقولين لي كما يقول المحللون إن تهوين الشخص من نفسه هو عقاب ذاتي مرده مبالغة التعلق بالأم. وستقولين إن خطايا النفس وذنوب الضمير خلقها خوفنا من الموت أو ندمنا على الأموات. وستقولين أيضا إنه ليس ثمة أفظع من حياة

نقضيها في الندم. بل وأقول أكثر من ذلك إن ندم الحياة نفسها هو الموت، وأعرف جيدا، حتى وإن كان الشعور بالذنب لا يمحو الأخطاء وإنما يشطب عليها فقط لا غير، أني تعبت من التشطيب على الأخطاء.

نظرت إليه، غمرني إعجاب بذكاء هو أول ما لاحظت بعينيه في أول حصة، وأنا أختم حصصنا:

- سأقول إنك وضعت كلمات على جراحك وهذه بداية العلاج.. سأقول إن حوادث الطفولة تخلف ندبا وإعاقات مستديمة قد لا نمحوها بغسل المَعدة ولكننا نتعلم كيف نعيش بها ومعها.. وإنه باستطاعتك تبنّي طفولتك من جديد. سأقول إن كل الناس يحسدون المبدع على قدرته على التعبير.. وبما أنك شاعر فلا شك أنك تعرف قول روني شار:

« L'artiste doit se faire regretter déjà de son vivant »

لأننا في الحياة لا نأسف إلا على ما لم نستطع فعله وليس على ما فعلناه. وسأقول أخيرا أن الكتابة كانت بالنسبة إليك أهم علاج نفسي وستظل كذلك.

تبادلنا ابتسامة تشبه التواطؤ وهو يصافحني قائلا بالفرنسية:

- شكرا على كل شيء، سفر سعيد.

أجبته بالفرنسية أيضا: شكرا لك.

أغلقت الباب وراءه.

تمنيت ساعتها لو كان لقلوبنا أبواب نغلقها متى نشاء.

- 2 -

ودّعتُ والدتي في المطار وأودعتها أمانة عند أخي وزوجته.

انتابني شعور بالقلق وأنا بين السّحاب، تمنّيت لو أستلقي على هذا الفراش القطني الأبيض وأدعه يأخذني حيثما شاء لي وله القدر، مستسلمة حدّ الانتشاء.

شرحت المضيفة بجدية، قبل الإقلاع، بعض تعليمات السلامة مركزة على ما يجب القيام به في حالة نقص الضغط بالطائرة وكيف تُستعمل أقنعة الأكسجين وصدريات النجاة.

كيف أقلق ممّا ينتظرني على الأرض وأنا لم أنجُ بعدُ من السماء؟

ها أنا على فراش أبيض، بغرفة بيضاء، حولي طاقم طبي بوزرٍ بيضاء.. عبرت قشعريرة جسدي الذي تعلم كيف ينتظر حُكم الطب عليه، وما نفعته سنواته الغضة التي قضاها على كراسٍ باردة بكلية الطب بالدار البيضاء.

أعجبُ لهذا الجسد، كيف يستقيم؟.. كيف يسقط؟.. كيف ينهض؟.. وكيف يحبّ من جديد؟

كنت هنا للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات، وقد استوطن الداء اللعين أنوثتي. استأصلوا نهدي وكان عليّ أن أكتفي بنهد واحد. كان تشبثي بالحياة أكبر من تشبثي بعضو لم يعُد يستفز أحدا. عرض علي الجرّاح ساعتها عملية جراحية تجميلية أو على الأصح ترميمية. لا أدري لِمَ رفضت.. ربما لأنه الاختيار الوحيد الذي سُمح لي به حينئذ وكان لابد أن أنطق بكلمة «لا».

عندما يتبرّأ منك الجسد، ويبدأ شعرك بالتّساقط كأوراق الخريف، وتصبح أنحل من ظللك وأوهن من شيخوخة صرت تتمناها بعد أن كانت ترعبك.. يصبح همّك الوحيد أن تحيا.

هناك، كان قد أهداني أحد الأطباء الأصدقاء كتابا تحت عنوان «شفاء القلب» وهو لمحلل نفساني عانى من مرض عضال واستطاع أن ينتصر عليه فأسّس نظرية مفادها أن ابتعاد الإنسان عمّا يشكل جوهره وهويته يُحدث خللا في توازنه ككائن، فيأتي المرض كناقوس الخطر لينبّهه.

ومن هنا جاءت مقولته:

« La maladie est la partie la plus saine de notre corps »

أيكون مرضي «الجزء الأكثر سلامة في جسدي» هو صرخة الأنوثة المكبّلة بقيود مؤسّساتية؟

لقد ابتعدتُ عنّي لفرط ما تنازلت وتساهلت حتى لم أعد أعرفُني.. أصبحتُ ما فعلته بي مؤسسة الزواج وتبعاتها.. إنسانة آلية بلا روح ولا وجدان.. إن ضحكتُ، فبدون رنين، وإن بكيتُ، فبدون شجن.

يقول سير ويليام أوسلير: «أكيد أنه من الضروري معرفة أي نوع من المرض يصيب المريض ولكن أليس أكثر أهمية معرفة أي نوع من المرضى يستحوذ عليهم المرض؟»

أحسست أنه من الضروري أن أستعيد نفسي من جديد بعد أن انتفض الجسد شاهرا سلاح المرض وأي مرض.. نخر في عباب الأنوثة الراكضة.

عجبت كيف منحني المرض قوة اتخاذ قرارات حاسمة لم أقو على اتخاذها وأنا سليمة معافاة.

كان قراري الأول واضحا وضوح الشمس: لو بقي لي يوم واحد في هذه الحياة سأعيشه وأنا حرّة حتى ولو كتب لي أن أقضيه على فراش السقم.

عزا زوجي السابق قراري هذا لإحباط نفسيّ بسبب المرض ولكنني لم أكن أبداً يوماً ما واثقة بما أريد بهذه الحدّة.

رفض أن يطلقني ورفعت عليه قضية خُلع كالتي رفعها علي نهدي بإحدى قاعات العمليات بباريس.

جاء صوت رئيس القسم بحماسه المعتاد ليشعرني بوجوده أمامي:

- سنأخذ عينات من الدم، وستجرى لك فحوصات بالأشعة صباح الغد لنفرج عنك بعدها، على أن تعودي بعد أسبوع لمعرفة نتائج الفحوصات والنظر من جديد في إمكانية إجراء عملية التجميل.. آمل أن تكوني قد غيّرت رأيك.

هكذا كل شيء يبدو مقررا من أجلي، وليس لي إلا الإذعان والصبر.

تذكرت سنوات تدريبي كطبيبة بمستشفيات الدار البيضاء، قبل أن أختار الطب النفسي كاختصاص، كيف كنت وزملائي فخورين بوزَرنا البيضاء.. فخورين بكل ما نتعلمه على حساب آلام الآخرين. كنا نسعد بغرس الإبر في مكانها الصحيح ولا نأبه بأنّة المريض. نخدش حياء الشيوخ والنساء حين نقف كجيش أمام عريهم غير مبالين بمشاعرهم ونحن نناقش نظريات أكبر منا، بلغة لا يفهمونها، وهم يحدقون فينا، ويزيدهم غموضنا قلقا وخوفا.

آه من برودة هذه الغرفة وأنا على الضفة الأخرى من المرض، أعامل بدوري كآلة مختلة يلزمها إصلاح..

أخذت معي دواوين وحيد الكامل، شيء ما يشدّني إليها.. إليه، قرأت:

«كلّ حبّ ولادة..
وكلّ ولادة من نار
فلنحترق
بألسنة الشموع
وليكن ليلنا وعدا
بخراب
ناصع البياض

أين لي بالهناك
والهنا لا يسَعُ تبدّدي»

أفتقد الهناك الذي ألملم فيه تبدّده.. فيما صوته الرخيم يبدّدني.

قال «كلّ منا ينتحر بطريقته الخاصة».

قد يكون في الانتحار استعجال لخلاص ما..

وكيف نخلص من الذاكرة؟

لابد وأنه الآن يجتر كل ما ابتلعَه من بوح. هو إنسان ذكي، لاشك في أنه سيستوعب نظريا أسباب عزوفه عن الحياة، لكن المهم أن يتخطاها عاطفيا..

سيحصل هذا، لا محالة، عندما يعود إلى الكتابة.

تذكرت أستاذ اللغة العربية وقد غضب منّي، عندما علم أنني سأرتاد كلية الطب

قال لي «أنت كاتبة وهذا ليس اختيار.. ادرسي الطب إن أحببتِ لكن إياك أن تنقطعي عن الكتابة، تتحررين وأنت تكتبين، وسيحسدك الآخرون لأنك تستطيعين أن تتنفسي.. الكتابة رئة ثالثة».

«ثمة أحلام نتخلى عنها خوفا من الفشل، أو ربما خوفا من النجاح».

وعند سكون الليل بالمستشفى الذي لا يوازيه سكون أحسست بالوحدة.. برغبة في أن أضمَّني إليّ.. و بحركة ميكانيكية أخذت ورقة وقلما وبدأت أكتب، دخلت في حالة غريبة.. ارتباك، رعشة أنامل وفيض يسيل دون استئذان، كتبت وكتبت بنهم من جاع لسنوات.. كتبت لساعات والدموع تبلل الورق كرذاذ يوم حار.

لم أعد إلى قراءة ما كتبت، ولا أخالني أفعل ذلك لاحقا، لم يكن المضمون مهما، بقدر ما كانت ملامستي للقلم.. كراقص خارج عن طوره لا يهمّه وعيه بحركات جسده ولا نوع الرقصة التي يؤديها.. بقدر ما يهمّه الرقص فقط.

خرجت اليوم من المستشفى بعد أن منحني الطبيب فسحة أربعة أيام أعود بعدها إلى استلام نتائج الفحوصات.

أحسست بحيوية فائقة ورغبة في عيش هذه الأيام الأربعة كما لو كانت الأخيرة.. رغبة في أن أمتص نسغ الحياة.

علمتني السنوات الثلاث الأخيرة كيف أستفيد من إيجابيات المرض. المرض ليس سلبيا تماما، إنه يُقرّبنا منا، يُعمق قدراتنا الخلاقة، يُغير فلسفتنا للوجود.. ونظرتنا إلى الأشياء تصبح أكثر نسبية.

قد يرهقنا، لكنه يجعلنا أكثر تشبثا بالحياة.

قادتني قدماي بخفة المتلهّف إلى متحف رودان.

عجبتُ.. كيف استطعت أن أبتعد عن الجمال طوال هذه السنين.

قضيت ساعات وأنا أتأمل التحف الناطقة تحكي عشق رودان وكاميل كلوديل.. عشق حدّ الجنون.

أجساد عارية تكاد ترقص من الحياة، بعضها مبتورة الرأس

أو الأطراف أو كلاهما. . تدعوك لترميمها. . لوضع رأس عليها، من إبداعك، قد تكون رأسك أو رأس من تحب.

وهاهي ذي تحفة «القبلة» الشهيرة تغمرك بنشوة تجعلك تتمنى لو تسلم النفس لشفاه مكتنزة تزرع فيك الحياة وتسلبك إياها في آن.

وأنت تنظر في عينين من البرونز تخترقك انفعالات. . قد تكون لها حين أمسك رودان بروحها في لحظة خلق مارقة، وقد تكون له وهو يرمم طينه الخاص.

رودان لا ينحت أجسادا بقدر ما ينحت انفعالات الكائن. . ينحت «اليأس» و«التعب» و«العذاب» و«البكاء» في أجساد نساء تكاد تئن. ويأتي «الألم» على شكل رأس فاغرة فاها تكاد تسمع صراخها.

وأنت تتنقل بين هذه المجسمات، تنتقل بين يأسك وتعبك وألمك وحزنك وعذاباتك لتجلس أخيرا في وضعية «المفكر» متأملا هذا المخاض الذي يُدعى الحياة.

أما «اليد» في أعمال رودان فهي تأخذ كل الأشكال والدّلالات:

يد الله الخالقة، اليد الحاضنة، اليد البعيدة التي لا يطالها نداء، اليد الصارخة، اليد المستقلة عن جسدها واليد الكائن.

أليست كل هذه الأيادي سوى يد الفنان في كل تقلباتها. . تبني، تهدم، تلمس في حنان، تقتل أحياء لترفعهم إلى درجة الخالدين أبداً.

يدُ الفنان التي تحضُن الكون هي نفسها التي هشّمت روح كاميل كلوديل..

فأرسلتها إلى مصحة الأمراض العقلية حيث قضت الثلاثين سنة الأخيرة من حياتها..

صرخات كاميل كلوديل لا زالت تدوّي في مكان يخلدهما معا.

اختار رودان ألا يتخلى عن زوجته المريضة تاركا كاميل تغرق في جنون اليأس ويأس الجنون.

بينما أبى الموت إلا أن يخلّد لحظات انصهارهما الخلاقة في هذا المتحف الضاج بالحب غير المكتمل.

أحيانا يغدق علينا الموت بكرم لم يكن من شيم الحياة.

تهتُ في الحديقة وكأنني أقتفي أثر خطاه مع ماريا السحاقية.

قال: «لم تكن تعلم أنها تحفتي الأجمل.. تمنيت لو كانت لي موهبة رودان لأخلد تقاسيم وجهها».

وتمنيت أنا اللحظة لو كنت نحاتة لأعيد صياغة يديه.. آه من يديه، وهو أمامي يسبر أغوار روحه، كانت تتكلم كل اللغات.

يداه التي مُدت إلي من تحت موج غاضب تطلب النجاة..

وإذا بها تجرفني فأجدني أمام «باب الجحيم» عند مدخل الحديقة، حيث الجثث معلقة والأرواح تحوم، جالسة على كرسي، أخط على ورقة:

«بلون القمح، بلون الأرض الخصبة المعطاء، الضاجة بالحياة.

تخفي تحت كبرياءِ قوةٍ ظاهرة، لين أحاسيس فطرية. إذ تنبسط تبدو بحجم المدى، وإذ تطبق تصبح رحما للحنان.

تشي رعشات خفيفة ببعض حياء، كمن يخجل من بوح أو يستسلم لإحساس بذنب.. وكأنها وهي تلامس الحياة تخاف أن تخدشها.

تدخل مراسيم التدخين وفق طقوس متعبد، تلفّ بلطف لفائف دخان كمولع بالنار.

كالبحر تحترف المد والجزر و لا يسعك أمامها إلا الترقب والخشوع.

تحس أمامها بضعف شديد وتتمنى لو تصبح عجينا لينا بكفيها، تدلكك، تُميتك، تبعثك من جديد، تنحتك على هواها، عساها تُفتتن بك كما افتُتنت بها.

تتمنى لو ترسمك، عاريا، أبهى مما تكون.. لو تعبث بك، لو تعصرك فتتدفق ألوان روحك الخفية.

تتمنى لو تصهرك في ثناياها، لو تغرس أظافرها في تربتك الجافة فينبعث ماؤك من أعماق آبارك.

تتمنى، وتتمنى.. حين لا تملك أمام سحر روعتها وجسامة عجزك سوى التمني..

يداه» .

أعدت قراءة هذا النص ، عجبت كيف استطعت أن أعبّر بصدق عما لاحظته على نحو عابر. ما الذي جعل لغتي تنتفض

فجأة وتنفض عنها الغبار؟ أهي عودتي إلى القراءة؟ أم أنه هو . .
من وضع خلسة قبلة على شفتي كفارس الأميرة النائمة ليوقظني
من سبات عميق؟

هو الذي هزمته الأنوثة، لم يعلم بهزيمتي . .

أنا التي هزمني قسم أبقراط :

«أقسم بالله العظيم أن أخشى الله في مهنتي،

وأن أصون حياة الإنسان في كافة أطوارها في كل الظروف
والأحوال باذلا وسعي في إنقاذها من الهلاك والمرض والألم
والقلق.

وأن أحفظ للناس كرامتهم وأستر عورتهم وأكتم
سرهم . . . »

وكيف أكتم سري؟

وكيف أبوح به؟ ومهنتي تحتّم علي أن أحافظ على المسافة
الضرورية لكل علاج نفسي.

أنهيت الحصص بسرعة قياسية حتى لا تشي بي الحرائق التي
أشعلها صوته ونفخ فيها صمتي.

بحت لأستاذي وصديقي البروفيسور عبد الرحيم الطويل
بضعفي أمامه وعجزي عن موضوعية تفرضها ظروف العلاج.
كان متفهما ونصحني قائلا :

«بما أنكما قد قطعتما شوطا كبيرا في العلاج، وبما انه ذكي
وعنده رغبة في الخلاص، ولا يشك بتاتا في أحاسيسك نحوه،

وبما أنني أعرف قدراتك المهنية، فأنا أنصحك بأن تستمري شريطة ألا تعرف هيئة الأطباء بالأمر. طبعا يمكنك طلب عرضه على أحد الزملاء لكن الأمر سيخلق بلبلة له كمريض ويشوش على سمعتك كمعالجة».

هل يشك بأحاسيسي نحوه؟

كيف يشك بأحاسيسي.. «هو الذي لم يلتفت حتى لكي يرى الأثر الذي أحدثته قدماه الطفوليتان فوق صفحة العالم»، كما قال مورياك عن رامبو.

سماء باريس هذا الصباح متواطئة مع حالتي النفسية.. تزيح عنها الغيوم برفق لتفسح الطريق لخيوط ذهبية خجول.

تحدثتُ طويلا مع أمي عبر الهاتف قبل أن أغادر الفندق تاركة المبادرة لقدميّ تحملانني أينما طاب لهما.

وجدتني دون سابق قرار عند باب جامعة السوربون أتفحص الوجوه الشابة.. كمن يبحث عن شخص تاه عنه.

دخلت مبنى الجامعة أتنقل بين الإدارة، مصلحة شؤون الطلبة، مصلحة العلوم الإنسانية، تاريخ الفن، مصلحة الاقتصاد.. طلبة يتناقشون وآخرون يهرولون إلى مدرّجاتهم ليلحقوا قاطرة العلم المسرعة، بينما يقرر آخرون ألا يضيّعوا أجمل أيام حياتهم في التحصيل فقط، فتجدهم في الأركان المظلمة يحللون كيمياء الرضاب.

وأنا، كباحثة في الآثار، أعيد بناء أحداث تاريخية لقصة حب من خلال أطلالها.

هو ذا ميدان حروبه العشقية المتعددة.. ميدان انتصاراته وهزائمه.. وهنا

سقط في شراك الزواج . .

جلبتني الكافيتيريا بصخبها . . أخذت مكانا بين الشباب . .
طلبت قهوة وبدأت أرسم له بالكلمات بورتريه . . أعطيته عنوان :
بورتريه الشاعر .

«يحب هذا الإحساس الذي يغمره والذي يجعله قريبا من
الله.

يحب كونه عاشقا.. عاشقا للحب كحالة امتلاء.. كفاية في حد
ذاتها. أما الحبيبة فهي وسيلة للسمو، للارتقاء بمشاعره نحو
المطلق، لا أكثر.

يحب فيها كونه محباً.. كون الحياة أصبحت أجمل، والورود
أنضر، والموسيقى أطرب..

يمتلئ، ويكتفي إلى درجة ينسى معها أن يقاسمها كل ما
توحي به إليه من جمال.

كطفل يرفض أن يعير لعبته لأعز أصدقائه.

هو المبدع وهي الإلهام.

هو الحالم وهي الواقع الذي يجعل الحلم أروع.

هو يدرك - نظريا على الأقل - أن الحب عطاء، تبادل،
تواصل، حالة ملموسة بكل الفصول: مطر يبكي.. ثلج يرتعش..
ريح تئنّ من البرد.. ونار تحترق.

لكنه يعيش كل هذا الزخم على الورق.. الكتابة.. حبّه الأول
والأخير. في حين تستعير أنثاه بياض الورقة حينا وسواد الحبر
أحيانا، سحر الحرف حينا وحرقة الكلمة أحيانا.

يعيش كمتصوف في عزلة عمّن يحب وإن كان يحمله داخله في صور شتى،

ربما لهذا لا يستطيع أن يحتفظ بأنثى أكثر مما تتطلبه القصيدة أو النص من حيز زمني.

كمن يمتص رحيق برتقالة بامتنان ولا يأبه لقشرتها، لبزرتها، لخيوط بيضاء تنخر جسدها البض.

ومع هذا فهو ليس انتهازيا. عندما يقول أحبك فهو فعلا يحبها وعندما يقول سأحبك حتى الموت فهو صادق ساعتها.. صادق في كل شيء حتى في كذبه.

يستطيع أن يحب أخريات في نفس الوقت كبدايات قصائد نزلت دون استئذان.

هو ليس خائنا ولا حقيرا ولا كاذبا كل هذه التهم لا يمكن أن تنسب إليه لأنه خارج النمط وخارج الأحكام.

يقول رامبو «لماذا نوبّخ الطفل، غير الموهوب في علم الحيوان، إذا كان يرغب بعصفور ذي أجنحة خمسة؟»

هو طفل يفكك اللعب ويختلق أخرى، ويبكي لو كسّر واحدة أو ضاعت منه أخرى.

هو سيد التناقضات، يُحسن جمعها وطرحها عند الضرورة. كبهلوان يستبدل صلابة الإسمنت بهشاشة الحبال، الهارب من قبضة نفسه إلى الريح، هو الشيطان والمسيح.

كانت تعرفُ كل هذا وتحبه كهدية من السماء، كشمس لا يمكن أن تحتفظ بدفئها دون سواها.. تحبه كطائر مهما حلق بعيدا فهو حتما سيعود إلى عشه.. وتعلم أن وضعهُ في قفص قد يقتل حبهما.

تحب انفلاتاته، حماقاته، تفاهاته، إشراقاته، إحباطاته..
ونظرته التي تجعلها الأجمل.

تحبه لدرجة تقاسُمه مع أخريات.. لكنها تحس في قرارة
نفسها أنها لا تتقاسمه مع أحد.

هي القصيدة وهن الأبيات.. متفرقة.. متناثرة.. واحدة تصلح
للإيقاع وأخرى للقافية وبينهن فواصل ونقط وبياض.

هي القصيدة المتماسكة الشامخة التي سيحفظها التاريخ..
هي المعلقة على جدار قلبه».

أعدت قراءة هذه الصورة مرات ومرات وكأنني أتأمل وجهه
أمامي.

لملمت ملامحه وضعتها بحقيبة يدي، ومضيت نحو نهر
السين أبلل به اشتياقي للبحر.

ركبت إحدى المراكب التي تدعى «مراكب الذبابة» وهي
تعبر السين في جولة تعريفية بتاريخ باريس عبر مآثرها. كسائحة
تحترم دورها أنصتت بإمعان إلى شرح المرشدة.

كل الحضارات العظيمة بُنيت على ضفاف الأنهار الكبيرة
مثل النيل وغيره.. أنهار كانت منبعا للحياة كما كانت مقابر
مائية..

حقا، الأشياء التي تصنع عظمة الإنسان هي نفسها التي
تقبره.

ها هي ذي باريس تستيقظ على إيقاع نبض العشاق.

قلوب حمراء.. بكل الأحجام والأشكال تملأ الواجهات الزجاجية للأحلام، كُتبَ عليها: «أحبك» بكل اللغات.

قلوب تستفز المارة.. تستفزّني.

فكرت وأنا في طريقي إلى المستشفى أن أعرج على بائع الورود، أشتري باقة ورود حمراء.. أصاحبها بورقة صغيرة، أكتب عليها بكل حب «كل عام وأنت حبيبتي» ثم أطلب من البائع إرسالها إلى عنوان الفندق.. وهكذا أتوصل بهدية عيد الحب ككل النساء الفرنسيات اللواتي أنعم الله عليهن بمُحبّ في هذا اليوم الذي يخلد ذكرى «سان فلانتان»: الراهب الذي ناضل من أجل العشق والعشاق.

خجلت لحظتها من تفكيري أو ربما عزّت علي نفسي وأنا أستحضر الكلمات التي دارت بين زوجين مغاربيين كانا بجواري في المترو:

قالت: «أتعلم أن اليوم هو عيد الحب وكل حبيب يقدم لحبيبته هدية؟.. إنه عيد العشاق».

أجاب بابتسامة ساخرة: «نعم إنه عيد العشاق وليس عيد الأزواج».

صرفت النظر عن الورود لأن لها دلالات أعمق من حبّي لنفسي..

استبدلتها بعلبة شوكولاته فهي على الأقل تحتوي على مواد ضدّ الاكتئاب.

لا أشعر بأدنى خوف من نتائج الفحوصات، كنت مطمئنة للقدَر متفائلة بعيد الحب.. أنا العاشقة السرية أصبحت رغبتي في العيش أكبر من كل ما يمكن أن يُعلنه الطبيب.

قال «الخلود ليس هو الامتداد في الزمن، بل هو الامتداد في أعماق اللحظة».

ولي لحظات تنتظر أن أمتد فيها عميقا.

أحس بامتلاء.. كوعد من حبيب.

بالأمس زرت «مقبرة مونبارناس» التي ككل متاحف باريس لا تخلو من إبداع، القبور مرصعة بالرخام.. بالورود.. وبصور أصحابها.. صور بكل الأعمار،

تُذكّرك أن الموت لا عمر له.

وأحيانا تجد بعض الكلمات نُحتت بكل حب.. تُذكّرك بأن الكتابة أبقى من الإنسان.

تجد هنا مثلا تحت ابتسامة مشعة:

«إلى أمي الحاضرة بيننا إلى الأبد»

وهناك: «كانت الجنة أينما حلّت»

وقد يستوقفك مجسم فوق قبر، صنع من قطع المرايا الصغيرة، على شكل طائر ذي جناحين عريضين يبدو كما لو كان يهمّ بالطيران كتب تحته:

«إلى صديقي جان جاك، كان طائرا، حلق قبل الأوان».

وقد تجد قصائد شعر معلقة كصرخة لقهر الصمت.

يرتاد الناس مقبرة مونبارناس كما يرتادون حديقة لوكسمبورك، منهم من يجلس للتأمل، منهم من يقرأ، ومنهم من يضرب موعدا لحبيبته. وقد يتبادل العشاق قبلا

أمام أرملة جاءت لتنثر زهورا على الفراش الأبدي لزوج غادر قبل ختم القُبل.

تُحسّ وأنت بالمقبرة بنوع من السكينة والراحة.. تدرك أن للموت جمالية خاصة تُسقط عنك كل رهبة وخوف.

جلست على كرسي مقابل لقبر جون بول سارتر وسيمون دي بوفوار.. أحسدُ هذه المعاشرة التي اخترقت الزمن دون أن تُكبّل نفسها بإكراهات اليومي.

وها هو الموت يصرّ على جمعهما في نفس القبر وقد اختارا أن يعيشا كل في شقته الخاصة تشبثا بحريتهما و تفاديا للرتابة.

أليس سارتر هو القائل «الجحيم هو الآخر».

لا آخر أمام الموت يا سارتر.. الإنسان وحيد أمام حتفه وإن كان يضم حبيبه إليه في متواه الأخير.. وحيد أمام الألم.. وحيد أمام اختياراته وقراراته الحاسمة.

قد يكون الآخر ضروريا لوصولنا إلى ذواتنا على حدّ قولك. .

لكن الموت اكتفاء.

ماذا لو كان بالإمكان العودة إلى الحياة بعد تجربة الموت. . موتنا المُعلن لا موتنا السري الذي لا رثاء ولا عزاء فيه؟

ترى ماذا كانت ستكون اختياراتك يا صديقي؟

وأنت أيتها العزيزة سيمون؟ لكأني أسمعك تردّدين:

«ينتصر القدر حالمَا نُؤمن به» وهل يكفي عدم الإيمان بالقدر لهزمه والخلاص من قبضته؟ تمنيت لو شاء القدر أن أتعرف عليك عن قرب، فأنا أومن بالصداقات التي تغير مجرى الحياة.

ولِمَ نبتعد كثيرا؟ لنتساءل فقط ماذا لو كان بالإمكان توسيع حلقات اختياراتنا في الحياة؟

استفزتني هذه الفكرة فإذا بي أكتب وروحي سارتر وبوفوار تحلقان حولي وتربتان على كتفي:

«لو كان بالإمكان
وهبتُ البهلوان
حبالي
وتواطأتُ
مع المتفرجين
على سقوط

«ممنوع
دون الأربعين»

* * *

لو كان بالإمكان
قفزتُ إليك
قُبلة واحدة
بدل
تلعثمي
على الورق اللعين»

جمعت أوراقي وأنا أغادر مقبرة مونبارناس وصدى صوت بداخلي يردد: «بمقدورك اختيار قدرك، غدا سوف يكون بالإمكان».

فتحت عيني على ابتسامة الطبيب وهو يقول لي:

«كلّ شيء مرّ على ما يرام، ستشعرين بألم طفيف في الصدر، غدا تصبحين أحسن».

حاولت لمس صدري لكنه منعني قائلا «لا تتحركي الآن، ارتاحي.. ستكونين فخورة بنهديك».

بدأت الأحداث تنبني بذهني شيئا فشيئا.

كيف لم أتردد لحظة عندما قال الطبيب وهو يُعلن لي عن نتائج الفحوصات:

«أهنئك على شجاعتك ومقاومتك المثالية للمرض، كل الفحوصات سليمة وأظن الوقت ملائم لإجراء عملية التجميل، ما رأيك؟»

لم أكن قد فكرت في الأمر من قبل، أجبت فقط:

«متى يمكن ذلك؟»

- غدا صباحا لو شئت.. كم ستمكثين بباريس؟

- لا زال أمامي أسبوع بأكمله.

- حسنا، هذا جيد، اتفقنا إذا.

وهكذا وجدتني أتفق على أمر لطالما رفضته. ما الذي جعلني أغير رأيي؟

أهو عزمي على معانقة الحياة من جديد؟ أهو الحب الذي يُصالحنا مع أجسادنا؟

وهل أخضع للتجميل من أجله هو الذي لم ينظر إلي يوما كأنثى؟

أم من أجلي، مقتنعة أنه لابد أن نحب أنفسنا لكي يحبنا الآخرون؟

لم أكلم أمي في الأمر ولم أستشر أحدا من أصدقائي.. كان قرارا شخصيا جدا.. حميميا جدا.

يؤلمني صدري، تذكرت جدتي وهي تقول:

«اللّي ابغى الزين يَصبُر لثقيبْ الوَذْنين».

كيف لا أصبر على زرع الجمال وقد صبرت على استئصاله؟

قد تقنعك ابتسامة عابرة، أو رعشة، أو مجرد أمل غامض بفعل شيء بعد أن فشلت في إقناعك كل النظريات الطبية وكتب علم النفس والمسلمات..

يؤلمني صدري، لكنه ألم مشوب بلذة.. كألم الحب.

الألم هو الشيء المشترك بيننا جميعا كبشر، ليس حكرا على أحد.

أسترجع قول الطبيب: «ستكونين فخورة بنهديك». .

لم يسبق لي أن كنت فخورة بجسدي، مع أنه لم يكن قبيحا ولا حتى عاديا. كانت صديقاتي تحسدنني عليه. لكننا نستمدُّ الفخر من نظرة الآخر إلينا ولم تكن في نظرات زوجي السابق ما يملأني بفخر أو اعتزاز.

لم يكن لديه وقت للوقوف عند عتبات جسدي. . ليتأملني أو يُعرّيني بعينيه. حتى خلال ممارستنا للجنس كان يتعمّد إطفاء النور قبل أن يقوم بحركات دقيقة شبه آلية، يستلقي بعدها مباشرة ليقرأ مقالا في جراحة القلب أو ليحرّر مُداخلة لأحد المؤتمرات العالمية. بينما أتكوّر أنا تحت اللحاف كرضيع يبحث عن رائحة أمه.

«ستكونين فخورة بنهديك».

كانت أمنيتي لسنوات أن أكون فخورة بثديين عطوفين وأنا أرْضعُ طفلي على نحو استعراضي، أمام الملأ، كما تفعل النساء البدويات بكل عفوية.

أُجهِض أملي بعد عملية الإجهاض التي أجبرني عليها زوجي السابق وأنا لازلت طالبة. .

كان حملا طارئا، حدث دون أن يكون مقررا من طرف زوجي السابق الذي أصرّ كرجل عملي على إسقاطه لأن الوقت غير مناسب.

تمّت عملية الإجهاض في سرية تامة من طرف صديق له متدرب بقسم أمراض النساء في ظروف سيئة خلفت مضاعفات تسببت في عقم مُكتسب.

ثمة فرص لا تتكرر.. لا وقت بعدها مناسب.

ألهذا رفضتُ ترميم ثديي بعد استئصاله اقتناعا منّي بعدم جدواه؟

وما جدواه الآن؟

قلت مع نفسي في محاولة إقناع جدية: إن كان الثدي قد فقد جدواه كعضو مقرون بالرضاعة، فالنهد بحمولته الإيروسية ورمزه للأنوثة سيظل يستمد جدواه من مجرد وجوده.

أهمية الجمال لا تكمن في كونه يجدي نفعا.. تماما كالشعر قد لا تكون له منفعة ملموسة لكنه أساسي لوجودنا.

بالأمس غادرت المستشفى وفكري مُنشغل بعبد اللطيف، فمنذ أن ذكّرني به وحيد في إحدى حصص العلاج وهو لا يبرح ذهني.

أهو المرض يُقرّبنا من بعضنا أم أن تواجدي بنفس المدينة التي يسكنها قد جعله حاضرا أكثر؟ أحسست برغبة في رؤيته والتحدث إليه.. سيكون فخورا بي هو المتشبث دوما بالحياة وبالجمال رغم كل القبح الذي تعرّض له.

كلّمت صديقنا المشترك رشيد وأخذت منه عنوان عبد اللطيف.. وقررت أن أفاجئه بزيارتي.

بعد عناء كبير وصلت «إقامة القصر» وهو مبنى عتيق يوجد بضواحي باريس على بعد مائة كيلومتر تقريبا، تحيطه بساتين وأشجار كثيفة. قلت مع نفسي هذا مكان يليق بفنان تشكيلي.. لابد أن يكون سعيدا وسط هذه الطبيعة المزهرة.

بحديقة الإقامة أناس مسنّون بعضهم جالس في صمت على كرسي، وبعضهم على كرسي متحرك يتنزه ببطء. لم أجرؤ على

سؤال أحدهم، دخلت البهو استقبلتني ممرضة بدينة، استفسرت عن سبب وجودي هناك ثم دلتني على رقم غرفة عبد اللطيف بالطابق الثاني. قطعت صالة كبيرة بها وجوه نالت منها الشيخوخة، بعضها يحدق في جهاز التليفزيون فيما أعين البعض الآخر مشدودة لفراغ يبدو طاعنا في المسافات.

فهمت أن المكان ليس منتجعا أو دار نقاهة كما أخبرني رشيد بل هو دار للعجزة.. ينحصر جدول الأعمال بها في نشاط واحد: الانتظار.

عجبت كيف يتواجد عبد اللطيف الذي لم يتجاوز عمره الخمسة والخمسين عاما في مكان أعدّه المجتمع الفرنسي لإقصاء من لم يعد لهم دور يلعبونه - بعد أن نبتت أجنحة فلذات أكبادهم وحلقوا في فضاء لا يتسع لغير المنتجين- فوضعهم في إقامة للمهملات سماها قصرا.

أي قصر هذا الذي اندفنت فيه يا عبد اللطيف؟ وكأن الانتظار قدرك.

أنت من بدد شبابه وراء قضبان الظلام من أجل الحرية.. تستبدل قضبانا بأخرى وحراسا بآخرين. جئتَ من بعيد لتستعيد صحتك وحيويتك فلم يجدوا أحسن من دار للعجزة لتعويضك عن العمر الضائع.. أيكون في هذا حكمة لمن لا يستوعب؟.. حقا في محاذاة الموت تكبر قيمة الحياة.

طرقت الباب برفق وقلبي يعصره الألم.

جاء صوته هادئا «أدخل».

ممدّد على السرير، ساقاه في جبيرتين من الجصّ، رأسه في

كتاب. رفع عينيه تجاهي وابتسم في ذهول «يا لهذه المفاجأة الجميلة».

لا أذكر إن كنت قد ابتسمت أم بكيت كنت أكتم صرخة وأواري ارتباكي بفرحة لقياه.

غرفته أضيق من الفوضى التي تؤثثها.. سرير ومكتب صغير وكتب متراكمة ولوحات مستندة على الجدار وكرسي واحد بأرجل وآخر بعجلات للتنقل.. الكل تحت إشراف نافذة تطل على الحديقة.

كعادته لم يتكلم عن مشاكله الصحية ولا عن حبس خطواته في الجص ولا عن العزلة الخانقة التي يعيشها ولا عن الأصدقاء الذين لا يزورونه إلا لماما ولا عن مخلفات تجربته في السجن ولا عن السأم من حياة لم تكن كريمة معه ولا عن غياب الأسرة والأحباب.. فقط، سألني عن نفسي، عن صحتي، عن الكتابة. ثم جلس دون أن يطلب مساعدتي على كرسيه المتنقل ودَعاني لجولة في القصر.

نزلنا الطابق السفلي وأخذني إلى صالة كبيرة بها خشبة مسرح وآلة بيانو وطاولة رُصّت فوقها بعض فرشاة وأواني صباغة. جلس إلى البيانو وأخذ يعزف لحنا شجيا من إبداعه. قال إنه يعطي دروسا لنزلاء القصر في الموسيقى باعتبارهم يحتاجون ترويض مفاصل أيديهم المتشنجة بالروماتيزم كما تطوع لتعليمهم الرسم.

ثمة أناس خُلقوا للعطاء تماما كما خلق آخرون للتلقّي.

أحسستني صغيرة أمام شموخه، سخيفة أمام معاناته المكتومة، أنانية أمام سخائه.

يبتسم للعجزة يعوضهم عن حنان ذويهم.. يتنقل بينهم كالمسيح.

قال: «كل منهم يحمل ذاكرة تثقل كاهله ومحظوظ منهم من خانته الذاكرة».

كم من الوقت قضينا معا يا عبد اللطيف في مكان تخلّى عنه الزمن؟

أصرَّ على مصاحبتي إلى باب الإقامة ووقف على قدمين مغلفتين بالجص في توازن هش مصرا على توديعي كما يليق.

علمني ساعتها «كيف تنتفي قيمة الأقدام عند من له أجنحة».

استيقظت هذا الصباح على أغنية لجاك بريل «عندما لا نملك سوى الحب، نهديه لبعضنا، يوم السفر الكبير..» تحسّست صدري.. لم يعد يُؤلمني.. لا أحسّ بجسم غريب يسكنه.. كيس السليكون أخذ مكانه تحت عضلة الصدر. نهداي نافران، منتصبان في كبرياء يصرخان في وجه العالم: نحن من قهرا المرض.. ولتحيا الأنوثة.

«عندما لا نملك سوى الحب..»

سرحت في وحيد وأنا أضع دواوينه بين ثيابي في حقيبة العودة.. صوته الرخيم وهو يغني جاك بريل، حديث يديه.. بلاغة صمته.

من الأشياء التي لازالت عصية على فهمي، سؤال اللحظة الأولى، كيف تسرب هذا الإحساس العجيب، وغير المسبوق إلى قلبي؟ كيف تحولت جلساتنا بصورة تدريجية، وغير واعية، إلى عالم سحري مغلق؟

قال «أليس هذا وكر التائهين؟» من كان منّا التائه؟

هو لم يسألني عن شيء، وطبعا لم يكن يَهُمّه معرفة شيء

عنّي. لكنني كنت كلما وجهت له سؤالا وجدتني أجيب عنه بدوري وكأنني وأنا أنظر إلى روحه من خلال الكشف النفسي أكتشف روحي.

كانت تنتابني رغبة في البوح كلما جاء صوته ذارفا نزيفه الداخلي بدفء وانسيابية شفافة وكأنه وهو يسكب أمامي سواد روحه يستدرجني للقيام بنفس العملية.. كما لو كنا نلعب «لعبة الحقيقة».

كان موقعي كمتلقية يضعني في مأزق لم يسبق لي أن جرّبته من قبل. لم أستشعر قبله صعوبة الحياد، بل على العكس، كانت دائما الدرع الذي أحتمي به وأنا أتلقى شظايا زجاج الذاكرة وهي تكسّر الصمت الدفين.

كنت بحضرته كما يقول المثل الصيني:

«المكان الأشد ظلمة يقع دائما تحت المصباح».

كنت له المصباح.. أخفي بحرص شديد ظلمتي تحتي.

لابد وأنه ككل المرضى يعتقد أنني قد توصلت إلى فكّ كل عقدي النفسية وأنني صلبة كالصخر، منعدمة الإحساس، أملك الحل لكل المشاكل، أستأصل الداء من الروح كما يستأصل الجرّاح الزائدة الدودية.

سمعت مرة جدتي وهي تقول - عندما علمت بخبر مرض الطبيب الذي يعالجها-:

«هل الطبيب يمرض؟» مشكّكة في كفاءته.

أجبتها ساعتها «وهل الطباخ يجوع»؟

قال لنا مرة أستاذ الطب النفسي، ونحن طلبة بكلية الطب، أن اختيارنا لتخصص دون آخر ليس مسألة عفوية بل إنه مرتبط بمعاشنا وبلا وعينا. وأن أكبر نسبة لحالات الانتحار تسجّل في صفوف الأطباء وعلى رأسهم مُختصّو الطب النفسي.

هل كان اختياري لمهنتي حبا في تخليص النفس البشرية من معاناتها أم أنه رغبة دفينة للتعرف على خبايا لا وعيي؟

وكيف يُوصلني مريض تائه حاول الانتحار إلى مرافئ ذاتي؟

سبق أن جرّبت حصص التحليل النفسي على يد أحد أساتذتي لكنه لم يستطع أن يمدني بالأكسجين الضروري للغوص بداخلي. وها هو مريض يتخبّط في أمواج وعيه ولا وعيه استطاع أن يمنحني الأمان للإبحار بعيدا في محيطات الذاكرة.

أعادني للقراءة، صالحني مع القلم ومع جسدي.

جعلني أحب نفسي من جديد هو الذي كره نفسه حدّ العدم.

ظهر فجأة ككل الصدف الجميلة.. ببرقه، برعده، بالمطر.. وكان الجفاف يقتلني.

أهو الماء جذبني إليه؟

لا أعلم..

لا أعلم سوى أن الماء يولّد الحياة من جديد.

- 3 -

وصلت العيادة باكرا ومعي بعض الجرائد التي أصبحتُ مواظبة على قراءتها، منذ عودتي من باريس، حيث قررت أن أعيد ترتيب حياتي من جديد.

وهكذا أصبحت أرتاد قاعات السينما والمسرح وأقرأ كل ليلة قبل أن أنام كما عدت إلى الكتابة بانتظام كمُكمّل لعلاج نفسي بدأته صدفة منذ ثمانية أشهر على يد مريض حاول الانتحار.

بكل اختصار: قرّرت أن أحيا.

فتحت الصفحة الثقافية وإذا بخبر يقفز إلى بصري:

«بمناسبة صدور ديوانه الجديد «أبراج الروح» يحيي الشاعر وحيد الكامل أمسية شعرية مع توقيع الديوان بالمركز الثقافي الفرنسي وذلك يوم السبت على الساعة السابعة مساء، والدعوة عامة.»

أبراج الروح.. أبراج الروح..

نطّ قلبي من بين الضلوع. لا أظن خبرا كان سيسعدني أكثر من عودته إلى الكتابة. يغمرني إحساس بانتصار ما.. أود لو أصرخ، لو أرقص، لو أطير إليه.

لا بد أن أحضر هذه الأمسية الشعرية. لكن بأية صفة؟ وكيف أضع نفسي في مهب الضياع وقد لزمتني شهور للشفاء منه؟ وهل شفيت حقا؟ وما معنى هذا الاندفاع؟

لكن، أليس لي الحق في الاحتفال بشيء ساهمت في تحقيقه؟ وقد أعدته إلى الكتابة هو الذي لا يعلم أنه قد أعادني إلى الحياة.

لا بأس.. لا زالت أمامي ثلاثة أيام لاتخاذ القرارالصائب.

وهل باستطاعتي اتخاذ القرار الصحيح وقد شُلت قدراتي الفكرية من جديد؟ كبركان خارج من سباته أصبحت أغلي.. لا أستقرّ على شيء.

أنام على «لا» وأستيقظ على كل المبررات الضرورية لـ«نعم»، وكالمراهقات أنتظر إشارة من السماء، لو أمطرت فـ«نعم»، ولو أشرقت الشمس فـ«لا» أو لربما العكس.

لا مانع من حضور قراءة شعرية ككل الناس. أليست الدعوة عامة؟

غير أني لست ككل الناس، أنا من شرَّح نفسيته بوكر التائهين، وسيكون حضوري بمثابة اللعب بالنار.

لكنه في نفس الوقت سيكون تتويجا بالنسبة إليه. سيسعده حضوري لا محالة خاصة، وأنه لا يعلم بحقيقة شعوري نحوه.

لكنني أنا أعلم وهذا يكفي. لقد صمدت لشهور أمام رغبتي

في لقائه من جديد والتحدث إليه. ولولا وجود الخبر بالجريدة لما كنت الآن أتأرجح بين الطبيبة والإنسانة.

نهاية الأمر:

لا أعلم كيف مرّت الأيام الثلاثة ولا ما هو قراري النهائي ولا كيف وجدتني في المركز الثقافي أرتعش في الصف الأخير وأنا أسمع صوته كعزف كمان شجي:

«أفتقدُ

«رقصة الأطلس»

على سطح التّيه

غفوة الرعشات

عند الغسق

وصحوةٌ..

كصباحاتنا

نائمة

لا تدع المسافات

تطوي بالصمت

قصتنا

سفني اشتهاء

ومرفؤك

قِبلة للصلاة»

أحب كثيرا مقطوعة «رقصة الأطلس» للموسيقار الراحل عبد القادر الراشدي. تذكرني بطفولتي وأنا أرقص على الطاولة من أعلى سنواتي الخمس ووالداي يتطلعان إلي بحنان وإعجاب.

كلما سمعتها اشتعل فيّ الحنين. لكن أن يفتقدها هو في «أبراج الروح» فهذا ما استقبلته كإشارة من القدر.

كان يقرأ.. ويقرأ.. وأنا أسمع ترتيلا كإسراء بالروح إلى أقرب مقام إلى الله.

لا وجود لأحد في القاعة غيرنا.. أرتشف كلّ كلمة تخرج من فمه كقبلة الحياة.

انتبهت وقد وقف الكلّ مصفّقا.. وما حملتني قدماي..

فكيف أقوى على الوقوف وجسدي لو أطاوعه يركع لأداء فاقَ كلّ تطلعاتي؟

يا الله.. أحببتَ خلقك حين مَنَحته سحر الكلمة.

جلس إلى مكتب ووقف كلّ من بالقاعة في طابور طويل ينتظر توقيعا منه.

لا زال بإمكاني الانسحاب في هدوء، وسأفعل بعد أن أستردّ أنفاسي.

ها أنا أمامه وقد انصرف الجميع، تقريبا، وهو ينظر إلي بابتسامة عريضة ويكتب:

«إلى من أعادت روحي إلى أبراجها
بعضا من روحي
مع امتناني ومحبتي
وحيد الكامل»

هل صافحته؟ أ قلت مبروك؟ لا أذكر.. لا أذكر سوى أنه قال:

«شكرا على حضورك، يسعدني أن أراك ثانية فأنا مَدينٌ لك بأشياء كثيرة.. سوف أتصل بك قريبا».

وضعت الديوان في حقيبة القلب، وخرجت، وصوته لا يزال يرنّ في أذني.

جلست بأول مقهى صادفته بطريقي.. ثمة قراءات لا تحتمل التأخير.

كم مرة قرأت الإهداء؟ وعيني لا تكل من ملامسة خط بقلم حبر أسود.

«إلى من أعادت روحي إلى أبراجها»

لم يكتب إلى الدكتورة فلانة ولا إلى السيدة فلانة ولا حتى إلى فلانة..

بعض التفاصيل تكون بحجم الكون.

ثم أهداني بعضا من روحه..

ثم عبّر عن امتنان ومحبة.

لم يكتب «مع المودة والتقدير» كما هو الحال في أغلب التوقيعات ولا «مع تحياتي».. كان إهداء خاصا بي.. غير قابل للتعميم.

لكن.. كل الكلمات التي كتبها في الإهداء تعبّر عن روح العنوان «أبراج الروح».

إذاً كان من الطبيعي أن يكتب جُملا تعبر عن عودة الروح

إلى أبراجها وأن يهدي بعضا من روحه، باعتبار الكتابة نزيف الروح، وأن يعبر عن امتنانه لمُعالِجته. أما المحبة فهي ليست حبّا. وأما عن اسمي فربما قد نسيه.

لكنه قال أنه مدين لي بأشياء كثيرة.. مثل ماذا؟ قد تكون عودته إلى الكتابة أو خروجه من حالة اكتئابه أو مصالحته مع نفسه أو أشياء أخرى علمها عند الغيب.

لكنه، وهذا بالتأكيد غير قابل للتأويل، قد قال «يسعدني أن أراك ثانية.. سوف أتصل بك قريبا».

وما معنى قريبا؟ ولا شيء نسبي كالزمن.

كم من الوقت قضيت في المقهى أمام فنجان قهوة لا أنا شربته ولا هو ساعدني على فك غموض يعصُرني.

قمت، وقد بدأ النادل في جمع كراسٍ متعبة اعتادت أن تنام فوق الطاولات،

وما قرأت بعد سطرا واحدا من الديوان.

كنت، فقط، أنتظر أن يتصل بي.

ما كانت، أبدا، طقوس «ما بعد الحمّام» بهذه الروعة. . تطهّر شامل للحواس.

لا أعلم كيف رسخت لدينا فكرة «ما يمشي للحمّام غير اللّي دار علاش» وكأن الحمّام غاية في حدّ ذاته. مع أنه لا يمكن إلا أن يكون وسيلة. . أن يكون تأشيرة دخول عالم سحري. . لا يلجه إلا المطهّرون.

وأنا صغيرة، كنت أحب طقوس الحمام، وكل العناية التي تُوليها النساء لأجسادهن كانت تَشي باحتمال مكافأة ما. . لا تشملنا نحن الصغار.

ما كنت أنتظر مكافأة كتلك التي غمرتَني وأنا أتمدد في قاعة الاسترخاء. .

رنّ الهاتف المحمول، الذي أصبح يقتحم كل الأماكن دون استثناء، وإذا بصوت أعرفه من ارتباكي لسماعه يقول «أتمنى أن لا أكون قد أزعجتك في يوم عطلة، أنا وحيد الكامل».

قلت «لا أبدا، أبدا. . كيف حالك؟» وكنت أود أن أقول ليتك أزعجتني من قبل أن أعرفك.

- بخير، لن أطيل عليك أود أن أراك هل يمكن أن نلتقي اليوم؟

- أجل متى؟ وأين؟

-بمقهى الشروق على الكورنيش ولتكن ساعة الغروب، موافقة؟

- أجل، إلى اللقاء.

لماذا كنتُ متسرعة هكذا؟ وماذا سيستنتج من قبول متلهّف دون تفكير أو تريث؟

ليتني أجبت مثلا «عندي التزام بعد الظهر لكن سأحاول أن أكون في الموعد»

أو «لندع اللقاء إلى الغد». . لا، هذا مُبالغ فيه ولنفترض أنه قبل اقتراحي أو أجله إلى ما بعد الغد.

أمامي ساعات قبل الموعد. . ماذا عساني فاعلة بها؟ ولا طاقة لي على الانتظار.

غادرت الحمام مطهّرة للقاء الغيب.

وجدت بالبيت أخي وزوجته وأبناءهما كفرصة لجعل الوقت أقصر. لكن صخبا بداخلي يغطي على جلبة الأطفال.

ماذا يريد قوله لي بالذات؟

الأجدر بي أن ألعب دور الطبيبة: أسمعه أولا، أتدخل لماما. الاندفاع هشاشة في مثل هذه المواقف. حتى البحر يلزمه جزر قبل المد. والفريسة يخونها اندفاعها لأن الطارد يقبع في

ركن.. يُحسن الانتظار. القناص الماهر هو من يُحسن الانتظار.. ينتظر ريثما تنهار أعصاب الطريدة لينقضّ عليها.. لا بد أن نتعلم من الطبيعة.

ما بالي أهذي من جديد، أي فريسة وأي قناص؟ لسنا في غابة. كل ما في الأمر أنه أراد أن يشكرني ويحدثني عن عودته إلى الكتابة. لكن كان بإمكانه أن يقول ذلك على الهاتف.

استأذنت من الجميع وانزويت في غرفتي. لابد أن أبدو أمامه في حلة المرأة لا الطبيبة. أي الفساتين تبرز أنوثتي أكثر؟ يجب الأخذ بعين الاعتبار كونه شاعرا، رقيقا، كساحر يرى الجمال في قمقمه.

«ستكونين فخورة بنهديك» ألم يقلها الطبيب الجرّاح بباريس؟ طبعا، سأبرزهما على نحو يجعله يرى ولا يرى.. سأستفز خياله المبدع.

الأحمر فاقع يعلن عن شبقية مفرطة، الأخضر مسالم لا طعم له، الأصفر شقيّ لا حياء فيه، الأبيض عذري لا يتقن الغواية، والأزرق غريب يبحث عن ضفة. لنقل الأسود إذا: فهو أنيق، له كبرياء الحزن، غموض الليل وفرح السهرات الخاصة.

فستان أسود لم تتح لي فرصة ارتدائه من قبل، اشتريته تحت وطأة رغبة مكتومة ذات حرمان. دسسته في الدولاب لأجل غير مسمى، مقتنعة ساعتها أن كل شيء بأوانه.

الشَّعر تاج الأنوثة كلما انسدل على الكتفين بدت الرقبة أطول ومع قليل من الريح ينطلق كشراع الحرية.

بقي أحمر الشفاه: في الأحمر القاني دعوة بذيئة، لنبق في الوردي الشفاف.. بعض الإيحاء يكفي.

قطرات من عطر اللوتس وها أنا جاهزة لقدري.

تحملني خيوط الشمس الأخيرة إليه..

كان جالسا في ركن صوب البحر، التفت وقد أحس خلفه وقع خطاي المرتبكة.

وقف متكئا على ابتسامة أسقطت آخر درع لدي. صافحني بحرارة، شكرني على حضوري، دعاني للجلوس.. قبل أن أردّ على ابتسامته.. أو ربما فعلت.

جاءت النادلة، توجهت إليه كزبون مألوف منادية إياه باسمه: «بماذا يأمُر الأستاذ وحيد؟»

اتجه نحوي:

- أسماء، ماذا تطلبين؟

نطق اسمي كما لو كنا أصدقاء من زمن سحيق. لاحظ ارتباكي فأضاف أمام فضول النادلة:

- لا أظنك تُصرّين على لقب الدكتورة خارج العيادة..

- إطلاقا، شاي من فضلك.

- وفنجان قهوة لي.

ضبّط كرسيه وتقابل معي ساكبا عينيه في عيني:

- سعيد برؤيتك.. كنت قد قررت أن آتيك العيادة لأهديك الديوان لولا حضورك المفاجئ للأمسية.. لم أكن أظن الأطباء يهتمون بالشعر.

قلت: لا توجد في الطب أقراص لمنع الشعر.

ضحك بصوت عال.. أول ضحكة أسمعها منه

- هذا صحيح.. أ أعجبك الديوان؟

- قرأت كل كتاباتك، ووجدت فيها متعة كبيرة.. بهجة للرّوح.

- حقا؟ هل كان غرضك تشخيص حالتي من خلال كتاباتي أم أن حبّ الشعر وحده من دفعك لقراءتي؟

- الاثنان.. إلا أن حبّي للشعر قد سبق فترة علاجي لك.

- عظيم.. وهل تكتبين؟

- يحدث أن أكون شاعرة ناطقة أيضا.

ابتسمنا في تواطؤ..

أعادتني كلمة «شاعرة ناطقة» لأول حصة لي معه في العيادة وكأننا نعيد أول لقاء مع فرق كبير.. تبادل في الأدوار..

كانت ثقته بنفسه تصبغ كل نبرة تخرج من صوته، وكان ارتباكي يهزّ المكان.

- هل أنت متزوجة؟

- أنا مطلقة منذ ثلاث سنوات تقريبا.

- من هذا الغبي الذي يطلق امرأة من قيمتك؟

كان من الطبيعي أن أردّ بأنني أنا التي طلبت الطلاق لكنني أجبت:

- رجل له قيَم أخرى.

- أعلى قيمة في الوجود هي الإنسان. وهل لديك أطفال؟

- لا.

لم أضف شيئا وقد بدأت تحرجني أسئلته الشخصية جدا.

أظنه لاحظ هذا.. فقد أشعل سيجارة وأخذ نفسا عميقا قبل أن يستأنف وعيناي تحضنان يديه.

- أحسست منذ الوهلة الأولى أنك طبيبة مختلفة، بروح أقرب من جوهر الإنسان، وهذا ما ساعدني على الخروج من السوداوية التي كنت أتخبط فيها. لذا أردت أن أشكرك بشكل خاص وغير رسمي، أشكر الإنسانة فيك.

تمتمت: «هذا واجبي».

- لا أظن أن أي طبيب يقوم بواجبه على أحسن حال كان سينجح في إعادة روحي إليّ إن لم يكن يملك، هو نفسه، روحا حيّة. ليس العلاج النفسي كالعلاج العضوي وإن كان كلاهما يحتاج لتعامل إنساني.

- كانت إرادتُكَ قوية رغم تَعبها، ولو لم تكن تريد الخلاص لنفسك لما استطعتُ لك شيئا.

- كان تعبي وجوديا، تعبُ الكائن من الحياة، من الآخر، من الجمال، من القبح، من الفرح، من الحزن، وحتى من الحب و من الشعر.

كنت أحسُّني وعاءً فارغا لا قدرة لي حتى على الحزن. . الحزن امتلاء بالسواد وأنا كان يملؤني الفراغ.

- فراغك من الكتابة؟

- كنت قد استنفذت كل طاقاتي من أجل غد هو حاضري. . وكل امتداد إضافي يتطلب تجديد النفس. . وكان قد ضاق بي نَفَسي.

- الحياة تجدّدٌ باستمرار وديوانك الأخير أكبر دليل على هذا.

نظر إلي بعينين يشع منهما بريق الصدق وهو يقول:

- أتعلمين؟. . أتشبث بكل كتاب جديد كأنه مفتاح الخلاص. . لأدرك بعد انتهائي منه أو انتهائه مني، أنه لم يكن سوى تأجيل عودة محتومة إلى ثغرات الذات.

قلت وأنا أسكب من حناني في عينيه:

- لا أحد يستطيع العيش دون مشروع جديد أيّا كان نوعه. . مشاريعنا هي التي تسد فجوات وجودنا و تشدنا إلى الحياة لتعطيها معنى.

- ربما، لكنني أدركت أن المهم ليس ما نقوم به، ولكن مع من نقوم به، تماما كما ليس المهم الأماكن التي نرتادها ولكن مع من نرتادها حتى وإن كان هذا الآخر مجرد طيف يسكننا كحلم جميل أو بصيص أمل.

هممت أن أعقب على ما قاله، لكنه قاطعني بلطف شديد قائلا:

- دعينا من الحديث عنّي. لسنا في العيادة، كلّميني عن كتاباتك.

- هي مجرد محاولات قد تكون طريقتي الخاصة لعلاجي النفسي.

- ومتى يحتاج النبع ماء؟

قال ضاحكا. أجبت:

- قد ينضب النبع أحيانا.. وقد يجف.

- يهمني جدا الاطلاع على ما تكتبين، عندي اقتراح.. أنا مسافر بعد يومين إلى باريس سأقضي شهرين هناك.. أرسلي لي بعض ما تكتبين عبر البريد الإلكتروني.

وأخرج من جيبه مفكرة وقلما وهو يقول: «قد لا يحمل الكاتب معه نقودا أو بطاقة وطنية لكنه لا يستغني عن مفكرته.. ما هو عنوانك الإلكتروني؟ سأفتتح أنا المراسلة».

لم يدع لي وقتا للتردد أو للتملص من اقتراح يخيفني وإن كان يستهويني.

سجل لديه عنواني قائلا: «شبكة الانترنيت شيء رائع، تحرر وتأسر في آن».

قلت في نفسي: تماما كهذا اللقاء.

استأذنت متمنية له عطلة سعيدة وخرجت لا سعادة تغمرني ولا حزن.

أحسست و الليل يسدل خيوطه على كتفي أنني قد سقطت في شراك العنكبوت.

خرج كل من بقاعة المحاضرة، بين ضاحك على نكتة ومُعقب على ما قيل، ومصافح بحرارة، ومستفسر عن غياب. . فالمحاضرات من هذا النوع، أعني المنظمة من طرف شركات الأدوية، تكون مناسبة للقاء الزملاء أكثر منها مناسبة لعناق الجديد في الطب. فالموضوع «أخلاقيات المهنة» أقدم من الشركة المنظمة نفسها ويكمن التجديد في كون المحاضر قادما من أمريكا الشمالية.

تقدم نحوي أستاذي البروفيسور عبد الرحيم الطويل مبتسما «أعجبني تدخلك وإن كان فلسفيا أكثر منه علميا» رددت وأنا أصافحه «الفلسفة أم العلوم يا أستاذ».

دعاني إلى فنجان قهوة بمقهى الفندق الذي نُظمت فيه المحاضرة.

ثمة أناس كلما جلست إليهم تحس أنك كبرت أكثر.

- لم تفكري بزيارتي منذ فترة علاجك للشاعر الذي حاول الانتحار، هل عندك أخبار عنه؟

- أجل، لقد اجتاز الأزمة وأصدر ديوانا جديدا فاتنا.

- كيف علمت؟ هل التقيتما مؤخرا؟
- أجل، الأسبوع الماضي. طلب لقائي ليشكرني؟
- هذا اللقاء بالذات لم يكن ضروريا. كان بإمكانه فعل ذلك عبر الهاتف.
- ليست الأشياء الضرورية هي التي تحركنا في هذه الحياة.
- بدأت تتفلسفين أكثر من اللازم يا أسماء، وهذا مؤشر على أنك تبحثين عن مبررات لوضع أنت غير مقتنعة به.
- لم يكن موعدا غراميا.
- ربما بالنسبة إليه.. اسمعيني جيدا يا عزيزتي أنت تعيشين فراغا عاطفيا وهذا غير جيد بالنسبة لك لا كطبيبة نفسانية ولا كامرأة.
- لكنني..
- دعيني أتمم كلامي، الدكتور محمد الصافي شخص مناسب جدا لك وهو يميل إليك منذ مدة لماذا لا تعطي له ولنفسك فرصة التعرف عن قرب؟
- الدكتور الصافي طبيب ممتاز لكنه «طبيب جدا»..
نطقتها بالفرنسية. ضحك سائلا بالفرنسية كذلك:
- ما الذي تعنيه بـ«طبيب جدا»؟
- ليست لي رغبة في إعادة التجربة من جديد مع طبيب من نفس طينة زوجي السابق، شرّح الحياة وأخذ منها عضوا صغيرا سكنه وقال أنا رب هذا الكون.
الحياة أكبر من الطب يا عزيزي.

- حسنا، الدكتور الصافي «طبيب جدا».. يمكنك اختيار من هو «أقل طبا منه» إن صح القول فالمعجبون كثيرون.

- يجب أن أكون معجبة كذلك ولو أنني أطمح إلى أكبر من هذا: أريد أن أكون عاشقة. اسمعني جيدا، سأحكي لك نكتة واقعية: صادف أحدٌ مرة صديقا له وسأله «لماذا انفصلت عن زوجتك؟» أجاب الصديق «لأنني لم أعد أحتمل الوحدة».

لم يبتسم، استوعب قصدي وقال بجدية وعيناه يملأهما عطف شملني به منذ أيام التخصص.

- هذا واضح، خوفي أن تضعك الأيام أمام اختيار صعب: أن تكوني عاشقة أو طبيبة. عشقك للشاعر انتحار للطبيبة. وأنا لست مستعدا لأن أخسر أحسن تلامذتي.

لمَحْنا الدكتور محمد الصافي من بعيد وهو يتجه نحونا، ابتسمنا في تواطؤ. وقفت قائلة:

- حان موعد انصرافي.

- لا أمل يرجى منك.. فكّري في ما قلته لك.. ولنبق على اتصال.

سلمت على الدكتور الصافي في طريقي وغادرت مسرعة..

ثمة أوهام لا تحلو الحياة من دونها.

«لا تستطيع أن تتصور كل النتائج التي تترتّب على إشعال النار. ولكن ذلك لا يعني أن تخاف إشعال النار في كل مرة».
أعجبتني هذه المقولة لرسول حمزتوف وأنا أقرأ كتابه «بلدي» قبل أن أستسلم لنوم كانت تنتظرني فيه كل الأشباح المنفلتة من الأنا العليا لتضرم النار في غابة الشعر.. التي كنت أتنزه تحت ظلالها، وتجعلني أركض.. أركض، منادية بأعلى صوتي على البروفيسور عبد الرحيم الطويل، وأستيقظ قبل أن يصله ندائي، وأنا أتصبب عرقا وألهث وأمّي أمامي تردد «باسم الله عليك يا بنيتي، بسم الله عليك. هذا بوغطاط الله ينعله».

نهضت مرعوبة، لسان خوفي يقول: «لا بد أن أحسم الأمر.. للبروفسور عبد الرحيم حق في كل ما قاله».

نعرف أحيانا أننا نضل الطريق لكن يدا خفية تدفعنا للمضي قدما.. أهي دهشة الاكتشاف تكون أقوى من خوفنا أم أنه الحب من يجعلنا نمضي مُغمضي العينين نحو الهاوية؟

معلوم أن الأشياء التي تمنحنا أكبر قسط من السعادة هي نفسها التي تدفعنا نحو حتفنا. .

لكن. . لا زالت أمامي إمكانية تصويب السهم نحو هدف آخر لا ينطوي على مجازفات. يكفي أن لا أرُدّ على أية مراسلة ليفهم أن علاقتنا لا يمكن أن تمضي أبعد ممّا وصلت إليه.

نهضت خفيفة وقد أزحت عني ثقل الارتياب، مرددة «كم من حاجة قضيناها بتركها».

وصلت المكتب. وقفت برهة أتملّى اسمي على لوحة الهوية بباب العيادة كمن يتعرف على نفسه لأول مرة. . «الدكتورة أسماء الغريب». وأنا طالبة، كان لقب الدكتورة يستهويني جدا لسبب كنت أراه أساسيا: عندما تحمل المرأة لقبا كلقب الدكتورة فالمجتمع يعفيها من كل الألقاب الأخرى كآنسة أو سيدة. . يصبح وضعها الاجتماعي أكبر من أن يُقرن برجل.

وقد كنت أجد في هذا إنصافا للمرأة في مجتمع لا يجد فيه شاب ذكر، في حضرة أنثى، سؤالا أذكى من: «هل أنت آنسة أم سيدة؟» ليخفي خلفه سؤالا أعمق وأهم بالنسبة إليه: «هل أنت عذراء؟» لأنه على عكس المجتمع الفرنسي تدعى المرأة المطلقة أو الأرملة في مجتمعنا بالسيدة.

فالآنسة هي من لم تمارس الجنس بعد وكل من سبق لها مضاجعة الرجل فهي سيدة. والدكتورة بحكم وضعها الثقافي أقرب إلى الرجل منها إلى المرأة بمفهوم الأنثى. فهي ترقى إلى درجة يصبح لقبها ولقب الرجل سيان. لهذا نجد كل الألقاب الهامة اجتماعيا - وهذا واضح أكثر في اللغة الفرنسية - تنطق

بصيغة المذكر للجنسين معا مثل: البروفيسور، والدكتور، والوزير، والكاتب،.. وغيرها. لدرجة أصبحت معها النساء الحاملات لهذا النوع من الألقاب مجردات من كل أنوثة. وكأن إبراز الأنوثة يتنافى مع الذكاء والقدرات المهنية للمرأة.

وقد كان للحركات النسائية في فترة الستينات والسبعينات دور في تكريس هذا الوضع واتخاذ شكل الرجل نموذجا يُقتدى.

فالدكتورة تصلح أمّا، ولكن المجتمع لا يعترف لها بحقها في الحب.. إذ كيف يعقل أن تهتم بعقلها وبقلبها معا.

دخلت مكتبي بعقل مُتّقد.. فتحت الكمبيوتر ثم علبة الرسائل وإذا برسالة قادمة من باريس تنتظرني.

«العزيزة أسماء،

ليل باريس، بقدر ما هو صاخب، يشعرك بالوحدة.

أحنّ إلى حديث الأرواح، هشّا، شفّافا كأجنحة فراشة.

حرّري كتاباتك من علبها المعطرة وانثريها على صدر العالم.. إنه يكبر كلما عانقه مبدع جديد.

اكتبي كما للأموات.. لتزدادي حياة.

أيتها المدهشة،

أفتقد البحر في ضحكتك، والسماء في صمتك.

وحيد.»

كم مرة قرأت هذه الرسالة؟

لا أدري . . سوى أنني حفظتها عن ظهر حب .

شيء فيها يستدرجني للبكاء .

ضغطت على زر «الرد»

وكتبت :

«عزيزي وحيد،

أن أكتب كما للأموات.. وهل بوسعي أن أفعل شيئا غير هذا؟

لكن القلم، هذا العنيد، المزاجي.. يأتيني متى أراد وأينما أراد.

يغازلني، أغازله.. يدنو ويبتعد.. ألاحقه.. يلتفت.. قد يعود وقد لا يعود.

قد يسقيني من رحيقه، وقد يبخل علي.

يحدث أن يتربع على جروحي في حياد، يحدث أن يعجن أطرافي، ويحدث أن ينام على وجعي.

هذا العاشق المعشوق المتربص بعرائي.. يحدث أن أتعرى أمامه، وأرقص على إيقاعات الأنين.

ويحدث أن يدثرني الحياء فتحمر وجنتاي في حضرته.

هذا القلم المنساب حينا والجاف أحيانا.. يشعلني ويطفئني.. يأخذ شكل «المشرط» حينا وشكل «الفرشاة» أحيانا.

له وخز الإبر حينا ونعومة اللمس أحيانا.

يحدث أن أعانده أنا أيضا فأرميه في سلة المهملات..

حدث أن قاطعته مرّة لمدة عشر سنوات وكانت النتيجة أن انتفض الجسد ضدّي شاهرا سلاح المرض صارخا: واقلماه!

أرأيت كم هو شديد الانتقام؟
ليكن،
إليك (في الرابط) نص قصة قصيرة يهمني رأيك فيها.
أسماء.»

بدون تريث أو تفكير ضغطت على زر «أرسل».
أحيانا تحسم التكنولوجيا في ثوان ما قد نعجز عن حسمه في شهور أو أعوام.

وأنا أنتظر قدوم المريض الأول دخلت أمينة، الممرضة المساعدة، وهي تبكي، قائلة: «لقد حصلت مصيبة للحاجة الضاوية بالأمس لهذا لن تحضر حصتها الآن».

كانت في حالة من الحزن والغضب جعلت من الصعب استفسار ما حصل بوضوح. كل ما فهمته منها هو أن الحاجة الضاوية، التي أنا بانتظارها، قد تعرضت للقتل بسلاح حاد، ببيتها بالأمس، ويبدو أن الدافع هو السّرقة.

ألمني هذا الخبر كثيرا فالحاجة الضاوية كانت شخصية فنية معروفة قبل أن تعاني من نسيان الجمهور. غادرها الشباب والجمال وحلّت محلهما الوحدة والاكتئاب.

قالت لي مرّة: «الشّيخة عندما تكبر تصبح كـ«البندير» المثقوب الذي لا يُطرب أحدا. فلولا ولد الحلال، الحاج المعطي، الذي لم ينس الأيام الجميلة وتكفّل بعلاجي لمت من الحسرة والغُمّة السوداء».

كانت تعاني من اكتئاب حاد هي التي منحت الفرح لجيل بأكمله.

كنت أحب الاستماع إليها وهي تحكي عن حياة صاخبة قبل أن تنفض الحياة من حولها. وعندما تتعب تقول: «شلّى ماَ يتقالْ ورا اللسان اثقالْ». أو تقول عند نهاية الحصة «شلّى فالكَاشوش اللّي ما قلتوش».

وجدَتْ نفسها بمحض الصدفة وسط هذا العالم المُغري بعد أن هربت من زوج عجوز أرغمها والدها على الاقتران به، وهي لم تبلغ بعد الرابعة عشر من عمرها. آوتها امرأة كانت عابرة مع جماعة بسيارة، وقد وجدتها ليلا على حافة الطريق الرئيسي المؤدي إلى مدينة برشيد، وهي تبكي، لا تدري ما تفعل بحريتها. عرضت عليها أن تشتغل عندها كخادمة، لكن جمال الضاوية وخفة روحها سرعان ما أقنعا وليّة نعمتها بضمّها إلى فرقتها الفنية. وهكذا أصبحت الضاوية، التي اكتشفت، في غفلة منها، أن لها مواهب في الرقص والغناء، من الشيخات المشهورات. حاولت بعد سنين، وقد علمت بوفاة زوجها، الاتصال بعائلتها لكن هذه الأخيرة فضّلت أن تعتبرها ميتة.

قالت لي مرة بكثير من المرارة: «كنت أرسل إلى أمي النقود مع غرباء، كانت تقبلها من بعيد، وترفض أن تقابلني خوفا من والدي.. ماتت ولم أحضر جنازتها، كما لم أحضر جنازة والدي. أما إخوتي فقد تبرؤوا منّي وحذّروني إن أنا اقتربت من الدوار سأموت على أيديهم. حمدت الله كوني لم أرزق بأخت، كانت ستؤدي حتما ثمن هروبي».

عرفتْ الشهرة والثراء حين كان الرجال يتهافتون عليها،

يجلسون عند قدميها وهي شامخة كنخلة أطلسية، تغني: «الزمان يدور و السْوايَعْ بَدّالَة».

وكأنها كانت تستشعر اليوم الذي ستموت فيه بهذه الطريقة الشنعاء.. تُقتل من أجل مجوهرات لم تعد تملكها.. لم تعُد تملك سوى سواد روحها تتخبط داخله.

أصبح يرعبها الغد وتخاف العجز والموت وتقول: «مادَا من مُوته امْشاتْ مَشموته».

أسرّت لي مرة قائلة: «لو كانت لي ابنة لما ضعت هكذا. مهنتنا مقرونة بالشباب.. عمرها قصير.. وأنا بدّرت أموالي على الأحباب والأصحاب.. وما يدوم حال».

كنتُ دائما أكنّ الكثير من الاحترام لهذا النوع من النساء اللواتي عانقن الفن في مجتمع يضعهن تارة في خانة الفنانات وتارة أخرى في خانة العاهرات. يُحيي بهن الأفراح ليلا ويقول لو صادفهن نهارا «اللّهم إن هذا لمُنكر».

وأنا صغيرة كنت أحضر الأعراس العائلية بالبادية وأرى كيف يستفرد الرجال بالشيخات وهم في حالة من الهيجان والمرح. بينما تختلس النساء النظر من خلف الستائر والنوافذ وكل الثقب المتاحة. كثيرات كن يشعرن بالغيرة من الشيخات اللواتي يرقص ويغنين ويتنقلن كالفراشات بغنج بين حجر هذا وذاك مضرمات فيهم نيران الشهوة.. ويتعجبن كيف أن أزواجهن المُوقّرُون يستمتعون دون حياء أو خجل منبهرين أمام هزّات البطون

والأرداف.. في حين على كل منهن أن تنتظر زوجها في استسلام لكي يتمّم معها ما بدأته الشيخة..

فالشيخة مرادف للمتعة والزوجة مرادف للواجب..

ولهذا تبقى الشيخة حلم المرأة المُسْتتر.

ففي كل ربة بيت شيخة أجهضت حلمها.. وفي كل شيخة ربة بيت تنشد الاستقرار.

لا زالت أمينة تبكي، عانقتها قائلة: «اعتذري عن كل المواعيد، العيادة اليوم في حداد».

وأنا في طريقي إلى المكتب وخطاي تسابقاني لفتح قوقعتي العجيبة، والتقاط الدرر التي تكتنزها، تذكرت حكاية جدتي عن أميرة كانت كلما استيقظت في الصباح وجدت ياقوتة تحت وسادتها.. لا تدري ما مصدرها.

هكذا أنا اليوم، أستيقظ كل صبيحة أو أغفو على رسالة تشاكسني، تداعب جفوني أو تناغي أحلامي..

وليس أجمل من رسالة تُسلمك نفسها لكي تفكّكها وتعيد تركيبها مرات ومرات، تستمتع بكل كلمة فيها، تتذوقها في كل مرة بطعم جديد، تخال نفسك قد سبرت كل أغوارها وهي التي ملكتك.

ما أقسى أن يراشقك بالكلمات شاعر يمتلك سحر الكلمة وأنت تنزف لكي تجد كلمات تعبّر عن أشياء ليست لها مفردات بين الكلمات. وتُعيد الحياة لنصوص كانت قد انزوت في ركن سرّي وغشاها غبار السنين قبل أن ترسلها إليه، بكثير من الحياء، كما لو كنت تتعرى أمامه..

وتتساءل كيف استطعت أن تعيش كل هذه السنين بدون أن تكتب وبدون أن يكشف هو على جسد الكتابة.

قال عن أحد النصوص: «أنت تُقبّلين ابن الجيران مجاملة لأمه، هذا لن يجعلها تحبك أكثر. تحاشي المجاملات وأنت تكتبين، إنها تقتل النص. أسوأ رقابة هي التي نمارسها على أنفسنا. لا تفرضي على نفسك قيودا تنسبينها للآخر. النصوص المشاكسة هي التي يتبناها الآخر ويسجلها التاريخ.. ينتظر منك الآخرون البوح بما يكنون في خفاء، حلقي فوق العادي، وحده القلم يمنحك أجنحة».

لا أحد غيره استطاع أن يمنحني أجنحة..

وصلت خفيفة الظل، فتحت قوقعتي، لتنط منها كقطة مشاكسة، رسالة من باريس:

«سيدتي،
إهانة
أن أقول لك صباحا جميلا
فالأصل في الأشياء
أن يكون الصباح
بك جميلا..

في البداية أعبّر عن تخوف حقيقي: هل سأستطيع المحافظة على المسافة الضرورية لقراءة موضوعية لنصوصك أم أن ذلك سوف يكون أصعب فأصعب؟. لن أعلق على هذه المسألة، وسوف أكتفي بتركها للمستقبل. أقول فقط أن النص موفق جدا، وأنك ما فتئت تؤصّلين تجربتك التي أصبحت لها بصماتها

الخاصة والمتميزة، وأنك تتميزين بشفافية هائلة وبسلاسة غير محدودة في التعبير.

الكتابة الحقيقية لا تتم إلا عندما نجبر أنفسنا على الكتابة كما للأموات، لمحاورتهم وإضافة شيء جديد لم يسعفهم الوقت لكتابته. اكتبي في عزلة تامة عن ضجيج هذه الفظاعة الكبرى التي تحمل اسم العالم. اكتبي وأنت تفكرين في إضافة مسافة أخرى للحلم وإمكانية أخرى نعدّد بها وجوه الحياة. ها قد بدأت تفعلين.. خصصي حواسك وجراحاتك وأحزانك وانفعالاتك وسائل للدخول إلى مجهول مُغو، ساحر، عميق ومميت. لا شك لديّ في أنك أنت هذا الذي أقول، الذي أحلم به وأريده لك.

أما بعد،

فأنا أحتفظ بصورتك في الكمبيوتر أستخرجها من حين لآخر أبثها شوقي وحنيني. ومع ذلك، طبيبتي، هذه الصورة كالأسبرين، تخفف الشوق، لكنها لا تجتثه. كالمخدر لا تعيد التوازن إلا مؤقتا لكي يصبح الاختلال والحاجة أكبر.

إنها تلعب معي لعبة ماكرة، أعرف جيدا ، آلها، لكنني مع ذلك، مصر على أن ألقى بنفسي في الجب.

أما صورتك الأصلية فأنا أحسّها تمد جذورها عميقا في قلبي وفي وجداني كشجرة أرز.

ترقبي عودتي من باريس الأسبوع المقبل.. سيكون لنا عند اللقاء لقاء.

وحيد».

نسخت الرسالة كما فعلت بسابقاتها وضعتها في ملف

خاص.. وأنا أتساءل كيف أجعل الأسبوع يمر بسرعة الضوء.

استطعنا بفضل الانترنيت أن نتواصل بوتيرة عالية وأن نتقرب من بعضنا أكثر. يا لعبقرية هذا الجهاز، يطوي المسافات، ينقل الصور والرسائل والمشاعر، يعبر القارات. لولاه لكانت ستلزمنا سنوات لنصل لما وصلت إليه الآن علاقتنا من تواطؤ وانسجام.

كنت دائما أجد في استعمال الانترنيت، كوسيلة للتعارف والتواصل، نوعا من عدم النضج، إذ لا شيء يعوض التواصل المباشر. لكن في ظروف يستعصي فيها اللقاء تبقى شبكة العنكبوت وسيلة سهلة، سريعة، وغير مكلفة. لم نقتصر عليها طبعا، لقد كانت مكالماتنا الهاتفية شبه يومية وقد أدمنت صوته، وكل كلام الغزل الذي يُجمّلني به.. وقد «سقط عموديا في حبي» كما يعجبه أن يقول.

أستعجلُ قدومه وأخافه في الآن ذاته، فعلاقتنا على الانترنيت علاقة سرية، تحميها خيوط العنكبوت الممتدة إلى ما لا نهاية، لا يعلم بها أحد، ولا حتى زوجته.. لا مجازفة بالظهور سويا في الأماكن العامة، لا مواعيد خارج أوقات العمل تثير الشبهات.. رسائل لا يعرف طريقها ساعي البريد، ومكالمات عبر هاتف محمول، كان حكرا على المخابرات، ذكي وعملي، وكأن من ابتكره كان عاشقا أعده لتسهيل حياة العشاق لا غير: بإمكانك أن تجعل الأرقام مكشوفة أو مجهولة، والرنة مسموعة أو صامتة، وإن كنت في وضعية لا تسمح بالكلام فالرسائل المتعددة اللغات أو الصور تنوب عن صوتك إلى حين.

أسبوع لا أكثر ونخرج من عتمة السرية إلى النور.

علاقات الحب نوعان: منها ما خلقت لتعيش في العتمة كالحيوانات الليلية ومنها ما لا تستطيع النمو إلا تحت الأضواء. وكثيرا ما تفشل العلاقات السرية بمجرد اصطدامها بالنور. تماما كما تختنق العلاقات التي تحتاج للضوء، كعلاقات نجوم السينما، إن هي فقدت اهتمام الآخرين بها.

ها أنا أهذي من جديد، كيف أفكر في النور وعلاقتنا لا يمكن إلا أن تظل سرية. ستستمر رسائلنا ومكالماتنا وتبقى علاقتنا علاقة روحية لا غير.. تتغذى مما هو فكري وثقافي.. لن أجازف بمهنتي.. ثم إنه رجل متزوج.

قبل أن أستقبل أول مريض، أخذت مفكرتي وبدأت في تسجيل كل ما يلزمني القيام به خلال الأسبوع الجاري: موعد مع الحلاقة، مواعيد مع صالون التجميل، حذاء أسود، بعض مستلزمات التزيين..

كما في الموعد الأول، تقابلنا في مقهى الشروق ساعة الغروب، وكان في انتظاري هو والبحر والنادلة المعجبة. وكما في الموعد الأول كانت دقات قلبي تفوق إيقاع كعبي العالي فوق الإسفلت. وكانت أناقتي تمارس لعبة الإيحاء وصدري يكاد يفتق القميص ليعلن عن نفسه.

وقف ليحيّيني وهو لا يدري أيصافحني أم يأخذني في أحضانه والنادلة تصور المشهد بعدسة عينيها كمخرج سينمائي فاشل.

قال وقد انتبه لفضولها: ماذا لو تمشينا على الشاطئ؟

أجبت في ارتباك: أفضل هذا.

حرّرت قدميّ من الحذاء الأسود الجديد، وقد سبقني لذلك، وتمشينا على الرمل يلفنا صمت فصيح.

توقف فجأة أمامي كمن اتخذ قرارا صارما لتوّه، وفي حركة انسيابية قرب وجهه من وجهي وهمّ أن يقبّلني..

دفعته برفق كمراهقة خجولة قائلة:

-أنت تعلم أنه ليس لنا الحق في ذلك؟

- لماذا؟

- لأنني معالِجتك.

- أعلم، وأعلم أن الذي قرر هذا لا يفقه في الحب شيئا.. وكأن الحب يحتاج إلى إذن من أحد.

- هذا قرار يحميك أنت.. فعلاقتك بمن يعرف خبايا روحك تجعلك هشا أمامه.

- لست هشا معك، بالعكس أنا قوي بك.. ثم من أعطى الطب الحق في أن يحدّد من نحب ومن لا نحب. أنا أعرف النظرية التي بنى عليها علم النفس قرار منعه لعلاقات الحب بين المريض ومعالجه، وأتعجب كيف تأتي من أطباء محللين نفسانيين. لماذا لا نمنع جرّاحا من الدخول في علاقة مع مريضة أجرى لها عملية جراحية وتعرّف على خبايا جسدها، وقد تكون قد أسرّت له بما لن تسر به لطبيب نفساني.

انفعل بشدة كمن يشعر بظلم كبير..

قلت محاولة أن أهدئ من انفعاله:

- الطبيب ليس ملاكا، إنه إنسان قد يستغلّ نقط ضعف المريض ليؤثر عليه خاصة وأنه يأخذ مكان الأب أو الأم في لا وعي المريض. كما يمكن أن يكون الطبيب نفسه يعاني من بعض الاضطرابات النفسية.. إنها علاقة غير سليمة وقد ذهب ضحيتها العديد من المرضى.. صدقني هذا القرار في صالح المريض.

لم يقتنع بما قلته واستطرد:

- «خلق الإنسان القوانين ليخرقها» يا عزيزتي.. ثم إن النظريات الطبية ليست مقدسة إنها تتطور وتتغير، ليست حقائق ثابتة، إنها في اكتشاف دائم. كما أن الطب علم له تخومه التي كثيرا ما يتجاهلها الأطباء ليمنحوا أنفسهم حقوقا لا يستحقونها. لنأخذ كمثال حملات الوقاية ألا تلاحظين معي أن الطب، باسمها، يستغل خوفنا من الموت ليقتلنا من الخوف والحذر، وهو يوهم الجميع أن بإمكاننا الوقاية من كل الأمراض، والعيش طويلا. ليكن، وما قيمة حياة مجردة من الخطر: خطر المرض، وخطر الموت.. إن كان في حبك خطر علي فهذا يجعلني أتمسك به أكثر. لا أظنه أخطر علي من السجائر التي أدخنها بنهم ولا أخطر علي من الحوادث التي قد أتعرض إليها كلما ركبت سيارتي أو عبرت الطريق أو ركبت الطائرة أو الباخرة أو شب حريق ببيتي.

أتعجب من الإنسان الذي يخاف علي من حب ويقتل بعضه البعض في حروب لا مبرر لها. يكفيك عزيزتي أن تفتحي جهاز التلفاز وتتابعي الأخبار لتفهمي أنني أتعرض لأروع وأسمى قصف منك.. لا يدمر أحدا، لا ييتّم الأطفال، لا يرمّل النساء.

كيف لا نضع قوانين تمنع الكراهية، والزيف، والرداءة، والقبح، والجهل، والوحدة القاتلة، والفراغ العاطفي وكل ما يولّد العنف والحروب. ونمنع الحب، والجمال، والفرح، والاكتمال باسم الطب، الذي ينبني في جوهره على خدمة الإنسان وحفظ كرامته وتخليصه من الألم. أو يدري الطب أنه

من أشد الآلام على النفس البشرية إجبارها على التخلي عمّن تحب؟

واصل، وقد تخلى عن حماسه وأخذ يداعب خصلة من شعري مستشهدا بمقولة لأسكار وايلد:

«الخلاص الوحيد من الإغراء هو الاستسلام له، قاوم، وتصبح روحك سقيمة بسبب ما امتنعت عنه.»

ثم أمسك كتفيّ بكلتا يديه كأنه يصارحني بشيء هام، مضيفا:
- لا.. لن أسمح لأحد باسم أي علم أو نظرية جوفاء أن يمنعني من أن أحبك. أنا لم أحبّ الطبيبة فيك، أنا أحببت فيك الإنسانة، أحببت فيك الأنثى، أحببت روحك الشفافة، وإحساسك الراقي بكل ما هو جميل.

صمت، لتتكلم عيناه. أخذ وجهي بين يديه وكانت الشمس قد أوشكت على الاختفاء وراء الأفق. وقبل أن تسلم النَّفَس للبحر كنت قد أسلمت الشفاه له.. ولسان حالنا يقول: لقد أضعنا وقتا ثمينا في الكلام.

«فينوس الحلم واليقظة»

إذا كانت ثمة مجرات في السماء فنحن الآن نيازكها في الأرض.

أن نعيش حُلما: يعني أن نشعر بالجسد كونا قائما. لا تحده ضفاف حيث يتماهى بالمطلق.

معك لا ينفعني إلا أن أكون واحدا ومزدوجا في آن، أن يكون لي من بين

الصوفية أحباب وخلان. وأن أكون من جهة أخرى على علاقة تطبيف مع الميتافيزيقا.

فالوقع البليغ للجمال هو ما يحدثه فينا ككمون روحي وعاطفي، حيث نشعر بالتطهير. وما ثمة من طريق للتطهير سوى طريق الجمال. غير أنه لا بد للجمال من معين يرويه وريّه هو الحب.

ويبدو لي أن الجمال حين يرقى بنا إلى أسمى حلوله يصير حبا، ناهيك عن ممارسته. إننا في صميم المقدس وفي صميم نزوة الحياة أو كما تسمونه أنتم الأطباء: إيروس.

نحب الأجساد التي تدمرنا وندمر الأجساد التي تحبنا، هذه هي علاقة إيروس بثاناتوس وهذه هي علاقة الازدواجية التي يضعنا فيها الحب، مضنية ومفارقة، لكنها هي شرط السفر في الجمال.

هذه مقدمة فلسفية لكلمة لا تخضع لفلسفة ولا لتفسير: أحبك.

وحيد».

كانت هذه قُبلة الصباح التي حملتها إليّ قوقعتي العجيبة وأنا لازلت لم أستوعب بعد ما حصل، بل وأتساءل كيف تغدق علي الحياة بهذا الفيض في أول لقاء مع الحب.

هناك صدف تضعها الحياة في طريقنا كخطة محكمة، لتوصلنا لشيء ما ينتظرنا، ندرك بعد مضي الوقت أنه قدرنا المحتوم.

لم يكن سفري لباريس إلا درجة في سلم يقود إليه..

وقد يكون مرضي نفسه لعبة الحياة معي لأربحه في النهاية. وكأنه اعتذار الحياة لي على كل جرعة مرارة سقتني إياها وهي تُلقنني أن الحب كذلك يجب أن يُستحق. لا مجانية في السعادة.. نحن نؤدي بشكل أو بآخر على كل فرحة، كل خفقة، كل رفة جناح.. وكأن الطريق إلى الجنة لا بد أن تمرّ عبر الجحيم.

لم أكن أطلب من الدنيا أكثر من أن أضع رأسي على صدره وأفتح أقفال الدموع لأفرغ منها.

رحمة هي الدموع لكنها أحيانا تبالغ في كبريائها وتأبى إلا أن تَنْسكب وفق طقوس مقدسة.. كرذاذ لا يتيسر إلا بعد صلاة استسقاء.

وكم صليت..

لا لأفرح، بل لأبكي على صدر بسعة الصحراء تمتص رماله الذهبية كل قطرة قطرة وكأنها ترتشف عصارة الأنين.

وقد كان أنينا تأوهي بين أحضانه وهو يعزف على أوتار الحنان، عزفا يحول الموسيقى إلى نحيب والنحيب إلى موسيقى.

لم ينبس بكلمة ساعتها، لم يسألني عن سبب بكائي، كان صمته تخشعا أمام دموعي. كان يعلم أن السعادة تؤلم حين تمطر بغزارة على روح تشققت قشرتها من طول جفاف. كان يعلم أن البكاء هو من يتربع على عرش السعادة لا الضحك. كان يعلم أن أول لقاء لنا منذور لروحينا، وأن الدموع تطهير للجسد.

يا أيها القادم من حيث ما انتظرت، والمحقق لأبعد مما حلمت: شكرا على نزيف الحنان العابر للجراح.. شكرا على وجودك عاكسا لعري الروح.. فالعري لا يكتمل بهاؤه بدون مرآة.

غرفة زرقاء، كل شيء فيها مهيأ للحب: ستائر شفافة كروح عذراء، سرير مخملي بحجم رقصة ثنائية، أريكة حالمة، طاولة تضم قارورة نبيذ فرنسي، شموع متناثرة الأحلام وسجادة تصلي احتفاء بملابس تسّاقطُ تباعا على إيقاع الهمس.

يدٌ تحطّ على خصر.. فتنفتح كل أقفال الجسد..

بدأتْ رقصتنا واقفة كتانغو يهيم بين دنو وابتعاد لتستمر على إيقاع «التبوريدة» وتنتهي بطلقة واحدة مدوّية يصبح فيها الفارس والحصان والسلاح واحدا.. كلّ طريح المعركة، فارغ إلا من إفرازات الحياة الحقيقية.

لملمت أعضائي صوب الحمّام. قال: «عودي، كيف تغتسلين من حب طهّرك؟»

عدت لا تحملني قدماي لأستلقي على حنان قال عنه إنه أحلى مرحلة من مراحل فعل الحب.

لم أكن قد اعتدت على مرحلة ما بعد الجنس، كانت مرحلة أقضيها في الحمام أغتسل من آخر آثار الجريمة لأنام بعدها تاركة مسافة أوسع من السرير بيني وبين زوجي السابق، الذي كان يعود

مباشرة بعد أن يغتسل منّي كذلك إلى أوراقه وجرائده.

لم أدر كم دامت فترة ما بعد الحب.. استيقظت بين أحضانه على منبّه الجسد وعضوه منتصب خلفي يقول: «صباح الخير، ها هي ذي الساعة التي تستيقظ فيها الورود لتستقبل الندى.. تفتحي يا وردة لقد هيّأت الرحيق لك.»

للجسد لغة خاصة، عندما يجد من يفهمها فهو يستغني عن تفكيرنا وعن قراراتنا بشأنه، ينساق ويسوقنا.. كعازف البيانو لا يأبه بما تفكر آلته.

ما خبرت من قبل سمفونية الفجر هاته.. هادئة كصحوة الطبيعة، زاهية كشروق، ممتلئة كثدي عطوف.. تلملم شتات الليل.. تغزل آخر خيوطه.. تزف النور للصباح.

قال كمن يهذي من النشوة: «ستشهد الغرفة الزرقاء يوم نخبو على ليلة العمر.. وكأني اختزنت ما اختزنت من فيض العشق كي أسيل في أنهارك.»

ما كنت أدري أن لي أنهارا بهذا العطاء.. تفيض على جنبات الروح فتنعشها.. تورق البراري ويستحيل الكون جنّة وأستحيل عروسا..

عذراء كنت قبل اليوم.

لا تفقد المرأة عذريتها مع فقدانها لغشاء البكارة، تفقدها يوم يلين الجسد المفعم بالحب.. يوم تجبل أنوثتها من لحظة اكتمال.

كثيرا ما تسرّ لي النساء ببرودهن الجنسي قائلات أن طبيعتهن هكذا.

وكأن ذلك قدر محتوم. الواقع أن للجسد لغات مختلفة قد يتقن الحديث مع أحد ويعجز عن التواصل مع آخر. الأجدر أن نتساءل «أنا هكذا مع من؟».

للجسد أقفال تنتظر فاتحها.

وكذا الأمر بالنسبة للرجال: الرجل ليس آلة للجنس، فهو قد يعجز عن الانتصاب أمام جسد معين. وأغلب حالات اضطراب الانتصاب عند الرجل سببها نفساني. الدليل على هذا كون الأدوية، التي تساعد على الانتصاب، لا يمكن أن تكون فعّالة في غياب الرغبة عند الرجل.

عذراء كنت قبل اليوم.. وما نجح زوجي السابق، خلال عشر سنوات على فراش واحد، في فتح قلعة الجسد.

ليس كل رجل فاتحا.. يلزم إقدام نحو البحر بعد حرق كل السفن. هو إبحار دون احتمال العودة. إما أن تعبر بطلا أو تموت شهيد الأمواج.

هكذا بدأت علاقتنا.. إبحار دون احتمال العودة.

- 4 -

«كلما بلغنا قمة السعادة ينتابنا إحساس غريب.. قلق مشوب بالأسف و الخوف.

أسف عما كان من قبل يؤثث حياتنا.. ما قنعنا به ظانين أن الحياة تقتصر عليه.

خوف مما سيأتي، أن لا يكون بروعة اللحظة الراهنة. إذ كيف يمكننا أن نقنع بأقل ممّا يهديه لنا الحاضر.

تأتي غيمة الأحاسيس المتضاربة لتحجب عنا دفء الشمس بين الحين و الآخر، فتسري قشعريرتها في جسد لا يزال يتساءل عن سرّ الحبور الذي يغمره وإن كان فعلا في حالة يقظة أم أنه يعاني من ضربة شمس.

أهو إحساسنا بالذنب أمام السعادة؟ و كأن التعاسة هي الحالة الطبيعية التي يجب أن تكون عليها حياتنا.

أم أن المطلق غير موجود؟ وكل فرح لابد أن يحمل قدرا من الحزن لكي يكتمل.

أم أنه وعينا بعابرية اللحظة التي نريدها أبدية؟».

كتبت هذا النص بكل تلقائية بعد أن أنهيت مكالمة مع وحيد الذي دعاني إلى العشاء الليلة وهو يبدو مندفعا وفي أتمّ السعادة. أصبح يخيفني اندفاعه.. لم يعد يراعي الشروط التي تفرضها سرية علاقتنا. يود لو يجهر أمام العالم بكونه عاشقا. وكلما حاولت أن أنبهه يرد باستخفاف: «الصّب تفضحه عيونه».

أو «تمتعي باللحظة يا حبيبتي، لنا اللحظات لا غير». لكنّني كمن عثر على كنز العشق، يحار أين يخفيه من شدة حرصه عليه.

أطفأت جهاز الكمبيوتر وبدأت ألم أغراضي، قبل أن أنصرف من العيادة، حين دخلت علي أمينة في عجلة من أمرها وقد نزعت وزرتها متأهبة للانصراف بدورها، قائلة: «هناك سيدة تصرّ على مقابلتك، اقترحت أن أحددّ لها موعدا لكنها مصرة».

- من تكون؟

- لا أدري، قالت إنها جاءت في موضوع خاص جدا.

- طيب، دعيها تدخل وانصرفي إن شئت.

امرأة شقراء، في منتصف العمر، ذات أناقة ملفتة للنظر، بعينيها شرارة التحدي. بدأت الكلام مباشرة بالفرنسية:

- أعتذر عن قدومي دون موعد، ولكن الأطباء لا يرفضون الحالات المستعجلة.

قلت: تفضلي.

- لا بأس سأبقى واقفة..

- من أنت؟

- أنا السيدة سوزان الكامل أظنك تعرفين هذا الاسم؟

جمدت أطرافي، وقلت مع نفسي وأنا أحاول أن أبدو طبيعية ما أمكن: هذا موقف يتطلب الكثير من الهدوء والحكمة.

خاطبتها مدارية اضطرابي:

- مرحبا، ماذا عندك؟

أجابت بحماس من يترافع في قضية:

- أنا لست مريضة وإن كنت مشوشة بسببك. لست هنا لأدخل معك في نقاش، لي شيء مهم سأقوله وأرحل. اسمعيني جيدا: أنا ضحيت كثيرا من أجل زوج أحبه، تحملت كل شيء، حتى خياناته العابرة أغفرها. لكن علاقة تهدّد بيتي لن أسمح بها أبدا. علاقتك مع وحيد يجب أن تنتهي اليوم..

قاطعتها بهدوء:

- هل هذا تهديد؟

- أجل ولن أتردد في تدميرك. كان بإمكاني الإساءة إليك دون تنبيهك لكنني إنسانة طيبة وأنت ذكية وتعلمين أن وضعك لا يسمح بهذه التجاوزات.. أظنك فهمت قصدي.

وقفت في محاولة لإنهاء هذا الجدل:

- اسمعيني من فضلك، دعيني أشرح لك..

- لا، لن أسمع شيئا. قلت ما لديّ. وداعا.

خرجت صافقة الباب وراءها وكأنها بذلك تصفعني.

شعرت بالأرض تدور حولي.. لا أكاد أصدق ما يقع. موقف سخيف، تمنيت ألا أوضع فيه أبدا. كلماتها تدوي كالرّعد بداخلي.. ونظرتها المليئة بالاتّهام والاحتقار والتحدي

تشي بأنها مستعدة لكل شيء إلا أن تخسره.. لم تدع لي فرصة الردّ.. ليتها سمعتني. ولنفرض أنها فعلت ماذا كنت سأقول لها؟

كنت سأقول إنني ما فكرت يوما في هدم بيتها. وأن علاقتي بوحيد خارج كل الإطارات المعروفة. حتى كلمة خيانة لا تنطبق عليها.

كنت سأقول إنني لا أكرهها وإنني لست غريمتها وأن حبه قد صالحني مع العالم.. فعبره أصبحت أحب كل ما له علاقة به: أصدقاءه، عائلته التي لا أعرفها، والديه اللذين تعاهدا على موت فوق إسفلت الطريق، بائع التبغ الذي يبتاع منه سجائره، ماسح الأحذية الذي يلمع حذاءه، طلبته في الجامعة، الناشر الذي يصدر دواوينه.. كل البشر.. بمن فيهم هيَ.

كنت سأقول لها إننا ما خططنا أبدا لمشاريع مستقبلية نحققها سويا على حسابها.

كنت سأقول أنني ما اخترت أن أحبه ولا هو اختار ذلك.. أنه تكفيني منه السويعات المسروقة أعيشها كهدية من السماء.. قد أكتفي بسماع صوته، برؤيته من بعيد، بمعرفة أنه بخير وسعيد معها. لكن حبهما تحول إلى محبّة ولا ذنب لأحد منا في ذلك.. لا ذنب لأحد.. لست أنا من جعلت لياليهما فاترة ولا جمّدت عواطفه نحوها.

كنت سأسألها كيف تغفر خيانات عابرة لا روح فيها وتجرّم حبّا لا يمكن أن يؤذيها في شيء؟ وأنها أول من يستفيد من علاقة كعلاقتنا.. فزوجها أصبح ممتلئا بالحياة قادرا على العطاء أكثر، يهتم بها أكثر، وقد يحبّها أكثر.

لا.. هذا هذيان عاشقة، كيف أقول لها كل هذا؟ هي ليست ملاكا. إنها مجرد زوجة تدافع عن زوج هو كل حياتها..

وكيف أعتبر حبّه لي شيئا إيجابيا بالنسبة لها؟ ماذا أنتظر منها؟ أن تشكرني؟ هذه قمة الأنانية.. أنانية لا تشبهني.

ما ألفتْ سعادتي أن تقتات من معاناة الآخرين ولا أن تشيّد قصرا على خراب.

ثم، لا أخال أحدا يجد الراحة بين أحضان دَمّرت يوما ما شكل بالنسبة إليه العش الذي لمّه من الضياع.. سوف تظل رائحة جثتها تطفو على سريرنا لو نحن اشتركنا في قتلها.

إن كان قدر الحب العظيم أن يطوقه المستحيل.. فلنحتف الليلة بالنهاية.. ولتكن بروعة قصتنا.

أحس بتعب عميق يشل أطرافي وفكري . .

لا يشبه تعب المرض ولا تعب من قام بمجهود جسماني . .

أود لو أكون وحيدة في هذا العالم حتى لا أضطر للتواصل وتبرير تصرفاتي إذ لا قدرة لي على التبرير.

أود لو أنزوي في ركن قصيّ مظلم، لو أمكن، لأستمع إلى صمت الكون وأنين أعضائي . . تؤلمني أعضائي، تتنكر لي . . لا أستطيع التحكم فيها كما لو كانت لغيري. أحيانا أتصبب عرقا، وأحيانا أخرى تسرع دقات قلبي دون مبرر . . حتى عيناي تدمعان دون سبب. كل تفكير في الغد يضاعف إرهاقي.

اليوم، بكل ما تخلفه لديّ مرارة الفقدان من كآبة وحزن عميقين، علي أن أتحمل عاقبة قراري في فض علاقة حب في أوج عطائها، علاقة في غاية النضج والإبداع، ما عشت من قبل مثلها.

وإذا كان لابد للحياة من أوهام، فها أنا ذي هذه المرة، يخذلني حظي ولا يقودني إلى أي وهم، بل إلى بيداء مقفرة من الحقائق الموجعة . . حقيقة كونه لأخرى.

قال: «لا أحد ينتمي لأحد، وكونها زوجتي لا يسمح لها بامتلاك روحي. هذه مشكلتنا، هي وأنا، دعيني أتصرف ولا تتسرعي في اتخاذ أي قرار».

كيف لا أعتبر نفسي طرفا في المشكلة؟ وأنا الطوفان الذي جرف ما تبقى من جدران بيتهما.

قضيت عطلة نهاية الأسبوع بالبيت، قفلت الهاتف النقال كأول طقس من طقوس الفطام. الخروج من الإدمان يتطلب قطع كل صلة بما بوسعه أن يجعلنا نضعف من جديد. ساعدني على ذلك غياب والدتي من البيت وقد سافرت لأختها المريضة بمدينة مراكش.

جلست إلى الكمبيوتر محاولة إتمام قصة قصيرة جدا كنت قد بدأت في كتابتها، تحت عنوان «وجهان ووسادة»:

«يطارده قلبه فيحتمي بعقله. يتعبه «لامنطق» الحب هذا. لابد أن يؤسس لنظرية تمكن من فهم أسرار القلب ومن التكهن بانفعالاته.

لم تعد تسعفه الساعات المهدورة أمام الكمبيوتر. يتدثر برتابة حياة منظمة لدرجة الفراغ. يعانق حياة اجتماعية تحسسه بأهميته، تملأ عليه النهار. وعندما يأتي الليل، يسمع نبض قلبه فوق الوسادة. يحاول إخماده، يمنعه شخير زوجته المتواصل.

. . . .

تهرب من الواقع إلى قلبها. لا تحسن التعامل مع الخارج إلا عبر ذبذبات الانفعال.

تحاول جاهدة ملء يومها بأشياء ملموسة لتكون واقعية كغيرها من نساء هذا الزمن.

تبحث في الكمبيوتر عن كلام الحب و عن أبراج الحظ.

تجلس ساعات في اليوم على عتبات عقله. تنتظر فجوة لتتسرب إلى داخله كفيروسات الكمبيوتر.

تدرك بإحساسها أنه يحبها، لكن عقله أكبر من قلبه. أو بمنطقها هي: أصغر من أن يعترف بقلبه.

ويأتي الليل، تعانق حلمها، نبضها فوق الوسادة يغطي على شخير زوجها المتواصل».

بدت لي هذه القصة كمشهد من شريط عشته خلال سنوات زواجي السابق. أعجبتني كما هي: صادقة تفتح باب التأويل على مصراعيه. سأعكف على مشروع المجموعة القصصية لملء الفراغ الذي خلفه وحيد. . ففي الكتابة استمرار لعلاقتنا بشكل غير ملموس. كان يقول لي «أسلوبك في السرد سلس وممتع أرى فيك روائية جيدة». وأنا أجيب: «أنت تبالغ، الرواية تتطلب نفسا طويلا، ربما أنجح أكثر في القصة». فيستطرد: «لا يهم، الجنس الأدبي الذي تكتبين فيه. المهم هي الكتابة، ومن يدري فربما تخلقين جنسا أدبيا جديدا. . الأطباء عندما يكتبون يفاجئون».

كانت له القدرة على شحن نفسي بثقة تهدّ الجبال.

أغبط سوزان، لابد أنها في قمة السعادة وقد استعادته ثانية.

لكن، هل نستعيد الحب كما نستعيد فستانا من صديقة

استلفته منا لتظهر به في مناسبة خاصة؟.. وكيف نعيش مع شخص نحن أرغمناه على ذلك، ونحن نعلم أن امتلاكنا لجسده في السرير لا يعني امتلاكنا لقلبه ولا لفكره؟..

وهل باستطاعة أحد أن يفض علاقة حب بين اثنين بمجرد منعهما من مقابلة بعضهما؟

لا.. لا أغبطها على وضع تصبح فيه هي حارسة سجن الزوجية.. وهو السجين. كل حركة منه محسوبة عليه. لو شرد بفكره فهو حتما يفكر في عشيقته. لو تحرك في فراشه فهو مصاب بالأرق. لو اعتذر عن الأكل فهو محبط من الشوق إليها. لو سمع أغنية لأم كلثوم فهو يناجيها. لو رنّ هاتفه النقال فلا بد أنها هي التي تطلبه. وإن لم يرن فهما اتفقا على عدم استعمال الهاتف النقال تحاشيا لوخز فضولها. لو بدا طبيعيا فهو يكابر أو يحاول إخفاء شيء. ولو قدم هدية فهو يقضمه الإحساس بالذنب. وحتى لو قال أحبك فهو محتاج لنطقها وعليها أن تحملها بثقل من يحصل على جائزة ترضية.

لا أغبطها، فإن كان لها دعم التاريخ فمن أين لها بدهشة البدايات.

قبل أن أقفل الكمبيوتر اطلعت على بريدي الإلكتروني. وإذا برسالة من وحيد جاءت لتزعزع قراراتي.

«اليوم صباحا قرأت بعض فقرات كتاب نيتشه. وحدث لي ما كان يحدث لي عندك في العيادة، وهو ما يحدث لي دائما مع

نيتشه، كلما أصغي إليه: نوع من «الكاترسيس». وكما تعلمين أن التنفيس هو عندما يصغي إلينا أحد ونحن نحكي عن أنفسنا. لكن نيتشه وحده من الفلاسفة القلائل الذي بمقدوره أن يمارس علينا التحليل ونحن صامتون. مثل شيطان. لقد قال هو نفسه «أليس الشيطان أقدم صديق للمعرفة».

ولست أدري لماذا تكون نوبة الاكتئاب هي ما يربطني بكتابات هذا الرجل؟ أهو الشعور بعجز العالم عن فهمه؟ أو عجزه عن مصالحة العالم؟ أو لربما لأنه شاعر مترجم للعدم. لذلك فهو نموذج القلق عندي. أمامه أشعرني أشبه بملاك كبير، أجنحته الضخمة تمنعه من المشي. كأن الذنوب تثقل كاهله. وهذه العلاقة الوجودية بالعدم تجعل نيتشه يقاوم من داخل الفلسفة بالكتابة، ويخيل إلي أني أقاوم، ليس بذات رباطة جأشه، فهو متعلق بالحياة وأنا أخاف الموت (وربما لهذا حاولت الانتحار) الفارق هو أن نيتشه ينتصر على تراجيديته حين يجد مثاله، أما أنا فلم أجد مثالي.

وحدها نوبات الحب تبدد سوداويتي. هل تسمعينني..؟

وحيد».

كيف لا أسمعه وقد اتخذ من نيتشه رسولا ينقل عبره حالة الإحباط التي يعاني منها هو كذلك. لكنني لن أردّ على رسالته ولن أتراجع عن قراري.

«لنترك الوقت للوقت» كما يقول الفرنسيون.

مر أسبوعان على هذا الحال، أذهب كل صباح إلى العيادة، أستمع إلى مشاكل المرضى.. أمتصّ إحباطاتهم النفسية لأعود مساء إلى البيت أعكف على الكتابة محاولة بذلك تفريغ إحباطاتي الخاصة. مستمعة لأمي بين الحين والآخر تسرد علي أخبار أخي وزوجته، هموم أختها الصحية وصراعها الشخصي مع الروماتيزم.

وسط رتابة اليومي، وحدها الكتابة تمنحك وهْمَ التجديد.. تؤثث فراغاتك بحكايات، وشخوص لولاك لما عرفت الحياة.. وأنت من سرق منها الحياة. تخلق عالما تتحكم فيه على هواك هروبا من عالم يتحكم فيك على هواه.. غير مبال بكونك تعيش فتات حيوات خارج الحياة.

أيّ وهم هو الكتابة.. لكنه وهم ضروري لمحترفيها.

لا زال وحيد يكتب لي رسائل قد تكون ضرورية بالنسبة إليه لتجديد الوهم، ولازلت أنسخها وأحتفظ بها في الملف المنذور لدفن الوهم.. مانعة نفسي من الردّ عليه.

اليوم، وقد أنهيت العمل بكثير من المكابرة، اقتحم علي وحيد مكتبي بعد أن أقنع أمينة أنه لا داعي لاستئذاني كي لا تفسد علي المفاجأة.

وقد كانت مفاجأة من النوع الذي ننتظره في سرّنا مراوغين بذلك قراراتنا السابقة.

أقبل كممثل على خشبة مسرح.. فاردا ذراعيه، وهو ينشد بصوته الرخيم:

ربما قد أصحو
وأجد
شخصا عاريا مثلي
إلى جانبي،
في عزلة لا متوقعة
وبعينين مدينتين لليل،
يحدثني عنكِ
ويسألني عن حكاية غيابكِ.

سألته كمعجبة خجولة: هل هذه قصيدة جديدة؟

أجاب: «لا، إنها ليست لي بل للشاعر لويس غارثيا مونطيرو. أما أنا فجئت لآخذك في نزهة على الشاطئ وسأسقيك شعرا إن كان هذا يشفع لي عندك».

ثم تقدم نحوي تسبقه ذراعاه وعانقني.. كمن يعانق الكون بأكمله. هامسا: «آه كم اشتقت إليك..».

شعرت لحظتها كم كنت أفتقد رائحته. .

ينتفي العالم أمام رائحته. . وحده صوت نجاة الصغيرة يردّد بداخلي: «ما أحلى الرجوع إليه. . ما أحلى الرجوع إليه. .».

سكب كل رحيق الشوق المعتق في قبلة. ثم قال بعدها:

«خذي شفتاي
فبعد الآن
لن أحتاجهما»

غمرني فجأة إحساس بالذنب. . حرر جسدي من قبضة ذراعيه. قلت بأسف بالغ:

- أرجوك وحيد، لا داعي لتنكيئ الجراح، حضورك ليس فكرة حسنة. . أين تركت سوزان؟

أجاب بنبرة الفائز برهان:

- أنا وسوزان قرّرنا الانفصال عن بعضنا كأي زوجين متحضرين بعد أن فهمت مدى تعلقي بك.

سألت متعجبة:

- بهذه السهولة؟

ردّ باستخفاف بالفرنسية:

- نعم، وبدون ضغينة. . هيّا لننصرف سأحكي لك كل شيء في المقهى.

شيء بداخلي لا يصدق أن تتنازل سوزان عنه بهذه السهولة. لقد علمتني الحياة أن المتحضرين كغيرهم، ساعة يهزم الحب، يصبحون حيوانات متوحشة.. تفترس بعضها البعض.

أخذت حقيبة يدي، تبعته، وكلي فضول واستغراب.

ونحن بالمقهى المعتاد، شرح لي كيف أن سوزان بعد محاولات متعددة لاستقطابه من جديد، وهو في حالة نفسية سيئة، فهمت أن هذه العلاقة ليست كسابقاتها: نزوة شاعر يجدد الإلهام.

سألته كما للتأكيد: «وهيَ تعلم أنك معي الآن؟»

- طبعا، كل شيء واضح بيننا وسنظل أصدقاء..

- ألم يكن من الأفضل أن ننتظر حتى تنفصلا قبل أن نتقابل من جديد؟

لم يعجبه تعليقي الذي يشي بعدم اقتناعي بنبل سوزان المفرط. فأجاب مستنكرا وقد داهمته نوبة من السعال:

- كنت أنتظر منك فرحة أكبر بالخبر ولهفة على لقائي. ألم تفتقديني؟

- بلى، لكنني لست مرتاحة لقرار اتخذته سوزان بهذه السرعة. عند زيارتها لي بالعيادة كانت تبدو متشبثة بك، ومستعدة لكل التحديات.

- أظنها أدركت أن لا تحديات تنفع مع الحب.

- أتمنى ذلك.

داهمه السعال من جديد وهو يقول:

- دعينا من هذا، اشتقت إليك.
- وأنا أكثر. لكن ما هذا السعال، هل أنت مريض؟.
- لا، لابد أنه ناتج عن التدخين لقد دخنت كثيرا في المدة الأخيرة، لكنني أعدك بالإقلاع قريبا.
- سأكون سعيدة بذلك.

وهكذا عادت المياه إلى مجاريها.. لولا هذا القلق الذي ظلّ يلازمني.

وبعد أيام من عودة الحب توصلت برسالة من هيئة الأطباء: استدعاء من المجلس التأديبي.

وصلت مقر هيئة الأطباء قبل الموعد بقليل وكان البروفيسور الطويل بانتظاري.

قال لي دون مقدمات:

- أرجوك، أنكري أن لك علاقة بهذا الشاعر وأنا سأساندك.

- لو أنكرت، سأكون كمن تتنكّر لنفسها، لمبادئها، لكل ما هو جميل في هذه الحياة.

- لا تكوني عنيدة، لا شيء يستحق أن تضحّي بمستقبل كافحتِ كثيرا لبنائه. يمكنك أن تتبرئي من هذه العلاقة وتفسري الأمر بسلوك مرضي من طرف الزوجين. فاللجنة ليست لها أدلة مادية تثبت أقوال الزوجة عدا بعض الصور الفوتوغرافية.

قاطعته:

- شكرا على مساندتك، لكنني لن أكون سوى صادقة.

دخل القاعة وهو يردد: «يا للغباء!».

كان المجلس التأديبي مكونا من رئيس هيئة الأطباء، وأربعة من أعضاء الهيئة ثم البروفيسور الطويل بصفته مكلف بالدفاع عنّي.

افتتح الرئيس الجلسة قائلا:

- وصلتنا شكاية من امرأة تدعى سوزان الكامل تتهمك فيها بالدخول في علاقة جنسية مع زوجها وحيد الكامل الذي هو أحد مرضاك. ماذا تقولين في هذا؟

- أقول إنها ليست مجرد علاقة جنسية إنها علاقة حب.

نزل جوابي كالصاعقة على أعضاء اللجنة وخاصة البروفيسور الطويل الذي كاد يطلق صوبي رصاصا من عينيه. استأنف الرئيس ليؤكد ما جاء في رسالة سوزان.

- لكنك لا تنكرين وجود الجنس بها؟

- لا أنكر، لكنه ليس إلا تتويجا لعلاقة عشق.. فحصر علاقتنا في الجنس ظلم لها ولنا.

- تعلمين أن هذا مخالف لأخلاق المهنة؟

- أجل أعلم.

- كيف تفسرين سلوكا كهذا؟

- أفسره بسلوك إنساني محض، شخصان راشدان أحبّا بعضهما.

رفع صوته معبرا عن استنكاره وهو يقول:

- لا تبسّطي الأمر. شخصان راشدان: أحدهما طبيب ملتزم بأخلاقيات مهنية يملك كافة قواه العقلية، والآخر مريض يوجد في حالة انهيار نفسي تهيئه للسقوط في أول حب يصادفه. ألا ترين أن هذه علاقة ينقصها تكافؤ؟

تدخل البروفيسور الطويل دون إذن من الرئيس كمن يحاول إنقاذ شخص ألقى بنفسه في البحر، قائلا:

- المريض كان يعاني من حالة اكتئاب استطاع تجاوزها بسهولة.. ثم إن علاقتهما قد بدأت بعد انتهاء الحصص بشهور وهو في حالة توازن نفسي تام.

رد الرئيس بتوتر متوجها نحوي، متجاهلا البروفيسور الطويل:

- تعلمين أنه غير مسموح لك بالدخول معه في علاقة جنسية أو عشقية (لا يهم التسمية) مدى الحياة.

- أعلم، كما أعلم أن هذا قرار يحتاج لإعادة النظر.. فليست كل الحالات المرضية متساوية.

- إنها حالة اكتئاب أدّت إلى محاولة انتحار.

- أجل، وأنتم تعلمون أن لا أحد منا محصّن ضد حالات الاكتئاب، كما أن أكثر حالات الانتحار تسجل في صفوف الأطباء.

التفت أعضاء اللجنة لبعضهم البعض في حركة استغراب واستنكار. أضاف الرئيس:

- ماذا تريدين قوله يا دكتورة؟

- أريد أن أقول إن ما تعرض له هذا المريض بالذات، ليس

حكرا على فئة معينة من الناس. كلنا نتعرض في فترة أو أخرى من حياتنا إلى حالات إحباط قد تصل إلى السوداوية.. ومن منا لم يفكر يوما في الانتحار؟ ربما يكمن الفرق في المرور من حالة التفكير إلى الفعل.. ولكن هذا لا يجعل منه إنسانا غير طبيعي أو غير قادر على الحب والعطاء.. إنسانا هشا لدرجة نخاف عليه من معالجته. ثم، أليس الحب هو شريان الصحة النفسية النابض ومفتاح التوازن في الشخصية الإنسانية؟

- لا تخلطي المفاهيم من فضلك. هو ليس ممنوعا من الحب لكنه ممنوع من حبك أنتِ.

نطق بـ«ممنوع من حبك أنتِ» كأنه يتكلم عن دواء ممنوع في حالة مرضية معينة. عقّبتُ:

- ومتى كان الحب شيئا يخضع للعرض والطلب، نبتاعه من محل الملابس كأي قميص، نختاره على مقاسنا، باللون والشكل الذي يناسب الذائقة الجماعية بحيث لا نزعج أحدا؟

- نحن لا نحاكمه هو، فهو كان في ظروف تؤهله تماما للسقوط في حب معالجته. أنت التي كان عليك أن تقفلي بابا أحسست أن الريح قد تهاجمك منه.. وتحسمي الأمر، وتجعلي حدّا للقاءات لا يمكن إلا أن تؤدي إلى تقارب.

- الطب لا يُحصنني من الحب كأي امرأة عادية، أنا إنسانة قبل أن أكون طبيبة.. وإن كنت غير قادرة على حب الآخرين بمن فيهم مرضاي، فأنا غير صالحة لأن أكون طبيبة. ومع ذلك فقد حاولت جادة أن أكبح هذه العاطفة بداخلي وأنهيت الحصص بكل مهنية دون أن أجعله يعلم شيئا عن عواطفي..

لكن «للقلب منطق لا يفقهه العقل».
قال الرئيس متهكما:
- هل هذا يعني أنه قد سبق لك أن أحببت أحد مرضاك من قبل؟
كان السؤال سخيفا ومستفزا جعل البروفيسور الطويل يقف فجأة قائلا:
- أرجوك سعادة الرئيس..
قمعه الرئيس قائلا:
- دعها تجيب إنها لا تحتاج لمن يدافع عنها.
أحس البروفيسور بالإهانة، جمع أوراقه وهمّ بالخروج قائلا:
- اسمحوا لي بالانصراف.. لن أحضر مراسيم دفن زميلة لنا.
استطرد الرئيس متعمّدا عدم التعليق على انصراف البروفيسور الطويل:
- يمكنك الإجابة يا دكتورة.
ثمة مواقف يُفترض أن تُضعفك لكنها بمفارقة عجيبة تُقويك.. هكذا مدّني انسحاب البروفيسور الطويل بشحنة من الصمود والتحدي..
وأنا أسترجع مقولة لنزار قباني: «من صوت القبلات عرفت حجم صوتي ومن اصطدام السكاكين بلحمي عرفت أبعاد جسدي.» أجبت:
- هل أحببت أحد مرضاي من قبل؟ أجل، أحببت كل

مرضاي نساء ورجالا وأطفالا. أما إن كان قصدك من السؤال هو هل مارست الجنس معهم جميعا؟ فأنا أرفض أن أجيب على سؤال فيه إهانة لمهنة شريفة دخلتها عن اقتناع، وإهانة لكم بصفتكم حراسا لأخلاقيات تُسقط الحب من قاموسها. قبل أن تكون فيه إهانة لي شخصيا أعتبرها مقصودة وغير أخلاقية. تحاكمونني على أسمى علاقة إنسانية عرفتها في حياتي باسم الطب الذي هو بريء من ادعاءاتكم. كيف لا تحاكمون من تجردوا من إنسانيتهم، من يتاجرون بأرواح الناس، ومن يتعاملون مع المرضى كآلات لا روح ولا إحساس لها، آلات تصلح للربح فقط..

ضرب الرئيس بيده فوق الطاولة صارخا:

- كفى.

قلت، وأنا أنتصب واقفة، بقناعة من لم يعد له شيئا يخسره أمام لعبة مغشوشة مسبقا:

- لا.. لن أدعكم، باسم أخلاق تفتقدون إليها، تصدرون حكما بالإعدام يبدو مقررا لديكم، لتغسلوا به كل ذنوبكم.. أنا من لم يعد يشرفها الانتماء إليكم. سأسهل عليكم المأمورية. أنا أقدم استقالتي من الآن قبل أن يأتي علي يوم أفاجأ فيه بأنني صرت أشبهكم.

أطرق الجميع في صمت وكأن على رؤوسهم الطير.. غادرت القاعة وأنا فارغة من كل إحساس.

قادتني خطاي إلى أقرب مقهى، جاء وقع الأحداث علي متأخرا، كمفعول دواء ذي تسرب بطيء.

أعيد الشريط منذ بدايته.. كلماتي لم تكن كلمات، جاءت خاما غير ضبابية، نيئة وعارية. كنت كمن ينظر من الناحية المقلوبة للتلسكوب، حيث تبدو الأشياء أصغر وأبعد. وأن كل قدم نضعها على الأرض هي خطوة نحو الهاوية. تنفصل من تحتنا الأرض ويزداد القلب خفقانا فيضيق الكون.. ولا يبقى أمامنا سوى الفرار إلى أبعد.. ثم أبعد.. حيث حتفنا.

وكمقتنع بجدوى الموت لتنتصر الحياة، كان لابد من انتحار بحجم رغبة سوزان في اغتيالي.

سؤال يعبث بي: ما الذي جعل سوزان تُقبل على انتقام بهذه الحدّة بعد أن اتفقت مع وحيد على الانفصال بكل تفاهم وتحضر حفظا لكرامتها؟

هي بالتأكيد لم تكن تنوي الانسحاب، بل أرادت فقط أن تعرف مدى تعلقه بي ومدى استعداده للتخلي عنها من أجلي. لا لأنها كانت تشك في قدرته الاستغناء عنها يوما، فأصعب شيء

بالنسبة للإنسان هو الاعتراف بأنه ليس ضروريا لأحد، ولكن لتثبت له ولنفسها أنها فعلا ضرورية لحياته. لذا فضلت أن تلعب دور الحكيمة التي بإمكانها تفهّم وغفران كل شيء يصدر منه.. فهو لاشك سيقدر سلوكها وسعة قلبها وعقلها. بل وسيحس بالذنب أكثر تجاه امرأة لا تسعى سوى لإسعاده.

من السهل على الرجل أن يواجه امرأة غاضبة تهينه وتشتمه وتهدده بالرحيل.. فهي بهذا تنقل له عدوى عنفها.. تحرّره.. وتمنحه الفرصة لقول «ارحلي إن شئت».

لكن امرأة هادئة تتعامل معه على أنه ضحية ألاعيب النساء وتعرض عليه مساعدتها، بحكم أنها أدرى بكيدهن، فهي حتما تكبّله بطيبوبة ترفعها إلى مرتبة ملاك.. ومن يتجرّأ على الإساءة لملاك؟

أدركت سوزان، منذ بداية حياتهما معا، حاجته الكبيرة إلى الحرية وجعلته يتمتع بحرية رجل أعزب، غاضة الطرف عن غرامياته مقتنعة أنها لا تغدو أكثر من مغامرات عابرة.

لكن لا أحد يعلم متى نصادف الحب.. فيصبح العابر مستقرا..

فمن رحم مغامرة ليلة تجبل مغامرة الحياة.

كما لا أحد يعلم متى يحدث استقلالنا العاطفي ممن كان يملؤنا.. فنستيقظ إحدى الصباحات خفافا وقد فرغنا منه.. كمريض انزاحت عنه الحمى.

ظنت سوزان أن بإمكانها تسيير العواطف كما تسيّر أمور منزلها، بنفس الدقة والإحكام.. يكفيها أن تقول كُنْ فيكون،

كذاك اليوم الذي قدِمَت فيه للعيادة لا وقت لديها للحديث.. هو أمر واحد يجب أن ينفذ والسلام.

وعندما أدركت أن قلب زوجها لم يعُد ملكا لها قرّرت أن تلعب آخر ورقة لديها: تضعني في امتحان عسير.. إما أن أختار مهنتي وتستعيد هي زوجها أو أختاره هو وعلي أن أدفع الثمن غاليا.

إنها امرأة ذكية تعلم أن العلاقات المبنية على تضحية جسيمة مآلها الفشل.. نحن لا نغفر للآخر تضحية ننتظر منه دائما أن يبرهن على أنه فعلا يستحقها.

وحده حب كبير باستطاعته الصمود أمام تضحيات كانت ضرورية لاستمراريته.

وسوزان دفعتني للتضحية بما كان السبب في لقائنا: مهنتي.

كأنها بذلك تمحو ذاكرة حب وتجرّدني مما تظن أنها أسلحتي التي هزمت بها زوجها.

هل أنا حاقدة عليها؟ لا..

حرائق الحب تشمل الجميع.. وجرائم الحب تجعل من مرتكبيها أبطالا يفوزون بحِلم العدالة وتسامح الضحية..

ذاك أن الكل في مملكة الحب سواء.

وأنا ألمّ ذاكرة العيادة في صناديق من ورق مقوّى، وأمينة تبكي، وقد منعتها من كل تعليق، سحبت الملف الخاص برسائل وحيد من درج المكتب وأنا أتساءل: كيف سيكون رد فعله حين يعلم بما حصل؟

سافر هو، بدعوة من معهد العالم العربي بباريس، للمشاركة في ندوة تحت عنوان «حوار الثقافات»، صباح توصلت أنا بدعوة من المجلس التأديبي بهيئة الأطباء. قال أن سوزان تصرّ على مرافقته. تراها خطّطتْ لكل شيء بإتقان: تتقدم بشكوى لهيئة الأطباء وتسافر معه لتتركني وحدي أواجه اختياري الصعب.. فيما تنتهز هي فرصة تواجده معها بباريس، حيث تطوقه بذاكرة الأمكنة وتستعيده من جديد.

أكان تحدّيا لها أم تحدّيا لنفسي حين قررت أن لا أخبره بشيء، وأن أواجه الموقف لوحدي؟. أم أنه كبرياء أنثى، ترفض أن تضع نفسها في منافسة مع غيرها على حب ترفض أن تكسبه تحت أيّ ضغط من الضغوط.

فتحت الملف، وأخرجت آخر رسالة منه، من فترة قراري الانفصال عنه، وقد كان محبطا ساعتها:

«أيتها الوردة الصامتة،

هل تتصورين ما معنى أن تتعب منك المؤسسة؟

لعنة حقيقية..

لقد لزمني وقت لكي أضرب بالمؤسسة عرض الحائط وأعيد العداد إلى الصفر وأختار قِبلة أخرى.

لم نخلق كغيرنا للمؤسسات، نقتات من فتات الطموحات الصغيرة ومن الحب الكاسد، نتوضأ بالرتابة ونبارك العقم يوميا بنفس راضية، ونتبادل الجشع المقنع والحسابات الشحيحة.

أنت لم تخلقي كأشباه الأطباء لتخطيط مشاريع كسب سريع ولو بسلخ جلد الآخرين، قلبك الفياض حبا وجمالا أنبل من أن يحشر مع الصيارفة المخاطة جيوبهم ولا يحملون في دواخلهم غير صحاري قاحلة. مع أنه بوسعك تحقيق ربح كثير.. ليس لأن ذلك أصغر من اختياراتك الجميلة فحسب بل لأن روحك الكبيرة، برية، لا ترضى لحريتها بديلا. ولهذا عندما يضاعف التفكير في الغد من إرهاقك فبكل تأكيد لأنه صراع على حماية حاضرك ومواقعه الكريمة، لذلك «فصراعك يمسك الغد من خصيتيه» كما يقول محمود درويش.

أيتها الصامتة،

أفتقد الصباحات التي تشرق بصوتك..

وحيد.. ووحيد».

رجّتني هذه الرسالة حدّ البكاء.. وما بكيت يوم نال منّي. وكأنني أقرؤها لأول مرة، مع أنها لم تقنعني من قبل بالرد عليها.. أحيانا نكتب أشياء قبل أوانها، كغمزة من قدر يمهد لما سيحصل.

سألته يوما عن قصيدة جديدة، لمن كتبها؟ فأجاب بقصيدة أخرى:

«قد يكون لك
ما كتبته قبلك
وقد يكون ليس لك
ما كتبته معك

ما همَّ طول
أو قصر الصور

ما همّ لونُ بحرٍ
أنتِ ملحه»

رنّ جرس الباب. لم نكن ننتظر أحدا. سألتُ أمينة هل حولّت كل الملفات على عيادة الدكتور محمد الصافي؟ ردّت بإيجاب وهي مهرولة لفتح الباب.

دخل البروفيسور عبد الرحيم الطويل بحماسه المعتاد، قائلا:

- كنت مارا من هنا وقلت لنفسي أن أمر للسلام عليك.

- شكرا عزيزي، تفضل كيف حالك؟

- اسمعيني جيدا أيتها العنيدة.. لن نسمح بهذا أبدا و..

قاطعته بلطف:

- لقد كان هذا اختياري، أعطيت الطب ما يكفي، لم يبق في العمر ما أضيّعه في حروب صغيرة. ثم إني أودّ التفرغ للكتابة.

- وماذا يقول شاعرك في كل هذا؟

- إنه لا يعلم شيئا بعد، إنه بباريس.

قال بالفرنسية متهكما:

« Qu'est ce qu'on ne ferait pas par amour? »

- أرجوك، لا تحمل الحب مسؤولية سخافة الإنسان.

- ماذا لو كان الحب سخافة الإنسان الكبيرة.. لا أذكر من قال:

« L'amour est une catastrophe magnifique : savoir que l'on fonce dans un mur, et accélérer quand même. »

قلت:

- إنه الكاتب فريديريك بيكبيدر.

ضحكنا معا على سخافات مشتركة، وتواعدنا بأن نظل على اتصال.

انصرف واستأنفت أنا وأمينة، التي لم تكف عن البكاء، تفريغ العيادة من أغراضنا الصغيرة تاركتين لها أسرار المرضى تحرسها في غيابنا.

مرّت علينا أسابيع مضطربة لامسنا خلالها كل أنواع التوتر والقلق، لم يغفر وحيد لسوزان تصرفها معي وطلب الطلاق.. كما لم تغفر والدتي لوحيد كونه كان السّبب في جعل ابنتها تتخلى عن مهنة كانت محض فخرها. وحتى عندما تقدم لخطبتي منها رفضت أن تقابله وأقسمت ألا تطأ قدماها بيته ما دمتُ على ذمته.. أما أخي الذي كان في صراع مع زوجته فقد اختار أن يكون محايدا.

كانت مفاجأة، يوم عرض علي وحيد الزواج، ونحن في غرفتنا الزرقاء التي شهدت أول لقاء حميمي لنا. سألته مستفسرة:

- كيف تخرج من قفص لتلج آخر؟

أجاب وهو يقبل يدي بين كلمة وأخرى:

- الحرية إحساس داخلي يا حبيبتي، إن تشبثنا بها في أعماقنا فلن تأسرنا سجون الدنيا.. ثم، منا من هو أسير جسده، ومنا من هو أسير فكرة أو وهم. أنا حر معك، وبك، لأنني اخترتك.

- وموقفك من مؤسسة الزواج التي ترفضها؟

- بإمكاننا أن نحرّرها من قيود فرضها الإنسان على نفسه خوفا من أن يضيع منه الآخر.. أو لربما خوفا من إغراءات الحرية.. صدقيني حبيبتي، الإنسان هو الذي يعطي المؤسسة محتواها.

تذكرت قوله لي، خلال إحدى الحصص عندما سألته إن كانت له علاقات مع نساء أخريات: «وهل يمكن لامرأة أن تختزل كل النساء؟». فسألته:

- كيف لي أن أختزل كل النساء؟

أجاب وقد فهم قصدي جيدا:

- كان لي مع سوزان تواطؤ الروح ومع بعض الأصدقاء تواطؤ الفكر ومع عشيقاتي تواطؤ الجسد. معك فقط أحس بامتلاء الروح والفكر والجسد. وهذه حالة لا نصادفها إلا نادرا وقد نبحث عنها عمرا بأكمله دون أن نحظى بمصادفتها. يهيأ لي أنني كنت أبحث عنك في كل امرأة عرفتها. أتعلمين؟ أفضع إحساس بالوحدة هو الذي ينتابنا وسريرنا يعج بالنساء.. «هذا الزحام، لا أحد» على حد قول عبد المعطي حجازي.

أشعل سيجارة، أخذ نفسا طويلا يشبه تنهيدة وتابع:

- أتعبني الترحال، وحان الوقت لكي أحط الرحال.. وإن كان لا بُدّ من موت فليكن بين أحضانك.

قلت مبرّرة تخوفي:

- أخاف أن يكون في عرضك هذا تكفير عن ذنب تحس به

تجاهي. أفضل أن أكون واضحة معك: أنت غير مسؤول عن اختياراتي ولا أريد أن يكون في زواجنا جبر خاطر.

- إن كان فيه جبر خاطر كما تقولين فهو جبر بخاطري أنا.. أنا من عانق التيه، والتشرد العاطفي.. أنا الذي بحث عن نفسه طويلا فوجدها فيك.. أنا من يحتاجك.

كانت حفلة زفافنا بسيطة جدا، وحميمية جدا، حضرها بعض أصدقائه من المبدعين، وصديقه إبراهيم، ثم البروفيسور عبد الرحيم الطويل، أمينة وأخي الذي اختارت زوجته مساندة والدتي.

كان وحيد سعيدا كطفل في يوم عيد رغم بعض التعب الذي يبدو على وجهه. كما أن نوبات السعال لا زالت تنتابه بين الحين والآخر.

همست في أذنه:

- هذا السعال لا يعجبني، لا بد أن نستشير طبيبا في أقرب وقت.

أجاب باستخفافه المعتاد:

- أنا الآن عريس، إنه سعال انفعالي.

رقص طوال الوقت. وعندما تعب الجميع جلسنا ملتمّين حوله على الأرض وهو ينشدَنا أبياتا من أشعاره وصديقه يوسف يصاحبه بعزف شجي على آلة العود.

عرفت ساعتها ما معنى أن تكون سعيدا حدّ الألم.

كانت تلزمني شساعة البحر ومياه لا حدّ لها لكي أبلل الجمر الذي ينهشني من الداخل وأنا أجر القدم تلو القدم.. أحرث الرمل، وقد انطفأ الضوء بدماغي وعجزت عن التفكير. وحده صوت الصديق الدكتور كريم الأشقر يملأ الفضاء وهو يبث إلي تشخيصه للدّاء الذي يعاني منه وحيد.. بينما نحن واقفان كمسمارين نبتا في الأرض، نحدق في صور أشعة رئة تصرخ من الألم. قال: «إنه سرطان الرئة في مرحلة متقدمة من المرض». تهاويت على أقرب مقعد وهو يحاول أن يسندني قائلا:

- كوني قوية يا أسماء لا تنهاري، فانهيارك لن يفيده شيئا هو الآن يحتاج فيك الطبيبة.

قلت: والطب لن يفيده شيئا كذلك.

أخذ كرسيا وجلس أمامي، أخذ يدي بين يديه قائلا:

- لن نقف مكتوفي الأيدي سنحاول قصار جهدنا، لكن لا أخفيك أن الأمل ظئيل جدا.

قلت وأنا أسحب يدي من بين يديه:

- سنحاول ماذا؟ سنحاول أن نمدّد في عمره شهورا يمضيها خارج الحياة في قاعة إنعاش تأكل منه الآلات ما استغنى عنه المرض.. سنحاول تمديد آلامه ما استطعنا ليظل على قيد المعاناة.. سنحاول خوض معركة خاسرة لإرضاء ضمائرنا كأطباء لا غير.. سنحاول ماذا؟

كنا قد عُدنا منذ أيام قلائل من شهر عسل قضيناه بمدينة البندقيّة، وقد عشنا أروع أيام حياتنا.. أياما أجمل من أن تكون حقيقة..

كان كلمّا أحس بنوبة سعال كبحها قائلا: «أعدك أن أقلع عن التدخين بمجرد عودتنا، فأنا لن أحرم نفسي من شيء هنا حتى ولو كان مضرا». كان ينتصب واقفا في الجندول مرددا بصوت عال: «هنا أضاجع فيك القصائد التي لم تكتب بعد ولن تكتب». كنت أضحك قائلة: «كفاك، نحن في البداية يا حبيبي». يؤكد: «ولا أريد غيرها، سأجعل كل لحظاتك بدايات».

كان يأتيه الشعر كوحي ينشده في حينه.. يجهر به أمام الملأ أينما وجدنا.. ولا يدوّن شيئا. وعندما أهُمّ بأخذ قلم لأكتب يمنعني قائلا: «خلق الشعر ليُعاش، لا ليُدفن في الكتب» ويستشهد بقول لوركا: «الشعر يحيا حينما يلقى أما في الكتب فهو شعر ميت».

عُدنا.. وكلنا أمل في جعل بدايتنا هاته تمتدّ إلى ما لا نهاية.

أقلع عن التدخين بعزيمة حرّ وعدُهُ دين عليه. لكن نوبات السعال احتدت فأخذتُه للدكتور كريم الأشقر الذي قام بفحوصات وأشعة. وعندما طلب منّي هذا الصباح عبر الهاتف أن آتي إليه وحدي لكي أستلم نتائج الفحص، فهمت أن في الأمر خطورة.

أجر القدم تلو القدم.. أحرث الرمل وأصلي ليتوقف الزمن، حتى لا أضطر لإخباره بالحقيقة.. ليتوقف الزمن حتى يتوقف المرض اللعين عن زحفه.. ليتوقف الزمن حتى لا يعرف الموت له سبيلا.

تذكرت يوم شخّص الطبيب سرطان الثدي لدي. كنت أقوى من الآن بكثير، استقبلت الخبر بشجاعة فائقة وكأنني كنت أنتظر معركة تُخرجني من رتابة مُميتة.. معركة بحجم الضجر الذي كان يقضمني حينها. كان عليّ أن أثبت لنفسي وللعالم أنني لا زلت قادرة على التحدّي بعد أن كانت قد ماتت كل إرادة بداخلي. كان يلزمني زلزال لتتحرك إرادتي من جديد.. السرطان هو الزلزال الذي أنقذ روحي من التلاشي.

أذكر كيف بقبضة من حديد تحكمت في مصيري وغيرت مجرى حياتي. ربحت معركة المرض وبعدها معركة الطلاق.. ولولا اقتحام السرطان حياتي لما عدت إلى الحياة.

ما كنت أعلم أنه أهون على المرء خوض كل المعارك مع المرض من أن ينقل لحبيب خبر مفجعا كهذا.. أية لغة تسعف

لرفع معنويات من يدقّ الموت بابه؟ تمنيت لو كنت أنا المصابة.. كنت سأخاف عليه من التألم بسببي.. كنت سأكابر وأحارب من أجل ألا تنسكب دمعة واحدة من مقلتيه. لكنه هو.. المحبّ للحياة.. والخائف من الموت حدّ الهروب إليه.. من وضعه القدر عند باب الجحيم.

أجر القدم تلو الأخرى.. وصلت البيت لا أدري كيف.. استقبلتني أغنية الموسيقار محمد عبد الوهاب، لتشي بوجوده بالداخل:

جيّين للدنيا ما نعرف ليه
ولا رايحين فين
ولا عايزين إيه
مشاوير مرسومة لخطاوينا
نمشيها في غربة ليالينا
يُومْ تِفرحنا
ويومْ تجرحنا
واحنا ولا احنا عارفين
ليه...
ليه...
ليه...

انتقلنا بعد حصص العلاج الكيميائي إلى بيت، اقترحه علينا صديقنا البروفيسور الطويل، بسفح الجبل. وقد اضطررنا للتخلي عن صداقة البحر الذي يرهق برطوبته تنفس وحيد.

قال: «لن أنتظر الموت في استسلام.. عليه أن يركض خلفي».

لكن الموت كان معنا، يأكل معنا، ينام معنا.. كان هو يحدثه، يروّضه، يستأنس به كمن يتعرف على أنثى قبل الاقتران بها.

صدق من قال أن الحب يجعل منا شعراء والموت يجعل منا فلاسفة.. وقد أصبح فيلسوفا لا ينطق بغير الحكمة.

قال لي مرة وقد أحس بإحباطي: «لا تنسي حبيبتي أنه سبق أن حاولت الانتحار فكل ما عشته بعد ذلك هو هدية من القدر، لقد كان الموت كريما معي.. أمهلني لأتعرف عليك ونعيش في شهور كل الأعوام القادمة».

وعندما يحس بتحسن يجلس إلى المكتب قائلا:

«تريّث قليلا أيها الموت.. إنّي أكتب».

وكمن يحاول إيجاد جانب إيجابي في كل شيء، يقول:

«الحب والموت هما المحركان الأساسيان لكل إبداع.. وأنا عاشق يحتضر.. إذن أنا سيد المبدعين».

وعندما يداهمه التعب يستلقي في الشرفة أمام شموخ الجبل ويقرأ أو يطلب مني أن أقرأ له.. قرأ لي يوما بصوته الذي لم ينل منه المرض أبياتا لعزّت سراييح:

«سيّدتي
أُعفيك الحدادَ يوم رحيلي
يوم لا أجيئك إلا في انفلات شكل الذّكريات
كوني سعيدة
كما في ما مَضى من مساءاتنا الجميلة
اقرئي مرة كتبي واصرخي.»

خانتني دموعي فقال مازحا: «كيف تستعجلين الحداد وأنا أوصيك بأن تكوني سعيدة».

لم أكن أحب الحديث عن الموت أو قراءة ما كتب عنه كان بالنسبة إلي نكء جراح لا غير. ثم كيف أكون سعيدة بعده وما عرفتِ السعادة لي طريقا قبله.

صهرتنا تجربة مرضه حدّ التّماهي، فعندما يسعل يؤلمني صدري، وعندما يضيق نفَسه أحس بالاختناق، وعندما يبتسم تشرق الشمس بعيوني. كان يهيأ لي أن الطبيعة تشاطرنا ما نحن فيه: فالجبل يتحرك عند وقفته، والقمر يسدل أنواره على شرفتنا

ونحن نقرأ، والمطر الخفيف ينقر نوافذنا كلما التحفنا ذراعي بعضنا لنغفو.

كان يغني بين الحين والآخر أغنية جاك بريل: «عندما لا نملك سوى الحب، نهديه لبعضنا، يوم السفر الكبير.. حبنا، حبنا العظيم.. إذن، دون أن نملك شيئا سوى قوة الحب.. فنحن نمسك بأيدينا، يا أصدقائي، العالم برمته».

كان يحب الكبير جاك، يقول عنه إنه شاعر متميز وإن كان الكل يعتبره مغنيا لا أكثر. كما يقول إنه تجمعه به أشياء كثيرة منها: حب الكلمة، تقديس الصداقة وسرطان الرئة.

يبدو أن جاك بريل كان يستهزئ بالموت كذلك وقد قال مرة وهو يرتاد السينما صحبة مادلي وأحد أصدقائه: «ثلاثة مقاعد من فضلك، واحد منها لمريض بالسرطان».

كان بريل يخاف الشيخوخة.. غناها بكل تفاصيلها الصغيرة.. بعالمها الضيق من السرير إلى النافذة، ومن السرير إلى الكرسي ثم من السرير إلى السرير.. بساعة الحائط التي تقول نعم وتقول لا وتقول إني في الانتظار.. بالدمعة العالقة بالجفون.. بعبورها الحاضر وهي تعتذر عن عدم وصولها بعدُ نهاية الطريق.. غناها وهو يتبرأ منها قائلا:

«يجب أن نتعلم كيف نصمت، بل وكيف نموت، لا يجب أن نشيخ».

وما كان يعلم أن المرض، هذه الشيخوخة المبكرة، ينتظره، بوهنه، بعجزه، عند منتصف الطريق. ليلقّنه أن الشيخوخة ليست مرتبطة فقط بالسن بل بتلاشي جسد الكائن، بشل قدراته

الجسدية والفكرية، بتبعيته لغيره حتى في أدق احتياجاته الطبيعية.

وكان أملي أن نعيش الشيخوخة معا..
أن يضحي أحدنا ظلاً للثاني.. نتنزه ببطء في الحدائق ويدي ترتعش في يدك، صامتين، تفرد تجاعيدنا ثرثرة الأعوام الماضية.. تقول نظرة كل منا وهو يحدق في الآخر بحنان كأنه ينظر في مرآة:
«آه، كم تغيرت، لكني أحتفظ بوسامتك في قلبي».
كنا سنضحك من كل شيء ومن لا شيء، ضحكات كخرير الماء المتكسر على الصخر. كانت شعيرات رأسك سترحل لتستقر في أذنيك وحاجبيك وأنفك، وأنا سأربي شاربا خفيفا كالذي كنت تفخر به في السنين الأولى لمراهقتك. كنا سننام على سرير، تعب هو الآخر من معارك حبنا، ملتصقين ببعضنا، تشكو أنت للمرة الألف من قدميّ الباردتين تحت اللحاف وأشكو أنا للمرة الألف من شخيرك المزعج.. وننهض مرات في نفس الموعد كل ليلة إلى الحمام ونحن نلعن التهاب المثانة. وعند الصباح نخطئ للمرة الألف في نظاراتنا الطبية.
كنت سأغار لو تطلعت لامرأة تصغرني سنا وتغار أنت لو حمل عني شاب كيس الخضر.
لكنك لن تعرف ترف الغيرة على عجوز من شاب وسيم.
والعلاج الكيميائي نظّف الجسد من كل الشعيرات.

تدهورت حالة وحيد وأصبح لا يستطيع الاستغناء عن الأكسجين الاصطناعي، تعب من برودة غرفة المصحة، أصبح متوترا طوال الوقت، يردّد كطفل يفتقد غرفته ولعبه «أريد العودة إلى البيت».

اقترحت على طبيبه المعالج الدكتور كريم الأشقر أن آخذه إلى البيت وأعتني به بنفسي فقد أصبح يرفض الممرضات والزيارات. قال: إنه يحتاج لكثير من الأجهزة ولقنينة الأكسجين وحقن المورفين ضد الألم وغيرها. وأن هذا مرهق بالنسبة لشخص واحد وإن كان هذا الشخص طبيبا.

قلت: «لن أجبره على شيء لا يرضاه. ثم إني أريد له أن يحتفظ بكرامته حتى النهاية».

وافق الدكتور على نقل وحيد إلى بيتنا بكل أجهزته شريطة أن يمر هو كل يومين لمعاينته وأن أقبل مساعدة ممرضتين تتناوبان على العمل.

لكن ونحن بالبيت اعتذرت للممرضتين وتفرغت له. بدا أحسن حالا وأنا أعتني به وقد أصبح الطفل الذي لم أرزق به:

أطعمه، أنظف جسمه، أحلق ذقنه، أقرأ له الشعر وبعض الروايات التي يحبها وقد ظل دماغه يقظا متقدا. قال لي يوما وأنا أقرأ له أبياتا للشاعر خوصي أنخيل بالنطي من اختياره:

«حلمتَ بأن تكون شاعر المستقبل
بموتك حقّقت رؤياك
اليوم بإمكان الآتي أن يكلمك.»

«لي عندك رجاء». قلت: «أمرك يا حبيبي».
- بعد موتي أود أن تكتب على قبري هذه الأبيات.
قلت وأنا أداري غصة في الحلق:
- كفاك هراء. ستشفى وستكتبُ أروع منها.
- أرجوك عديني أولا.
- أعدك، وإن كنت مقتنعة بأننا سننتصر على المرض بحبنا، وبإصرارنا. سبق أن ربحت معركة مع السرطان وأنا وحدي فكيف لا نربحها ونحن سويا.

مرّ أسبوعان ونحن على هذا الحال، هو يصارع الألم بكل ما يملك من كبرياء وأنا أصارع لحظات الإحباط التي تتربص بي كلما حضر الدكتور كريم الأشقر ليلاحظ أن الحالة في تدهور مستمر ويكرر نفس الكلام:
- أنا لا أفهم عنادك، التعب باد عليك وأعصابك لن تحتمل

طويلا. أنت في حاجة ماسة لمساعدة خارجية من ممرضة. العناية بمريض في هذه الحالة المتطورة من المرض مسؤولية جسيمة لا يمكن أن تلقى على عاتق شخص واحد.

وأنا أجيب:

- يهيأ لي أنني ما درست الطب إلا لأعنى به.

- موقفك هذا يحسّسه بالذنب أكثر. لقد أسر لي أنه لن يسامح نفسه وقد كان سببا في توقفك عن مزاولتك لمهنتك وهاهو يصير سبب عودتك إليها في ظروف أصعب.

وفي آخر زيارة له كان صريحا معي أكثر حين قال:

- إنه في اللحظات الأخيرة من المرض. لن يعدي أربعة وعشرين ساعة. لا بد من وجود ممرضة معك تسندك في اللحظات الحرجة.

أجبت بإصرار:

- لن يفسد علينا أحدٌ حميمية الوداع.

بعد انصراف الدكتور الأشقر، عند الظهيرة، تمدّدت على السرير بجانب وحيد الذي بردت أطرافه ودخل في شبه غيبوبة. وضعت رأسه على صدري وأنا أحضنه بيد وبأخرى أثبت قناع الأكسجين على أنفه. كان في حالة استرخاء تام وكنت في حالة من التعب لا توصف. لم أدر كم من الوقت قضينا هكذا.. جسدا واحدا ينفث أنفاسه الأخيرة. انتبهت بعد ساعات يبدو أنني غفوت خلالها.. وقد اختفت آخر خيوط الشمس. قمت مذعورة، أتحسس أنفاسه وأنا أزيح قناع الأكسجين عن وجهه ثم

أعود لأضع السماعة على قلبه فلا أسمع سوى نبضي الذي يكاد يصم أذنيّ.. وهو يبدو غارقا كرضيع في نوم عميق.

هكذا غاب مع الشمس بهدوء.. متحاشيا إزعاجي.

«حار كل شيء في الواقف، وحار الواقف في الصمود».
لم أدر من أين أتيت بكل هذا الصمود في لحظات تدعو إلى الانهيار. قبّلته، أزلت عنه كل الخيوط التي تربطه بأجهزة الحياة. حلقت ذقنه، نظفته كمولود جديد. ثم نظفت البيت قبل أن أدخل إلى الحمام لأغتسل في خشوع عابد يتأهب للصلاة. غيرت ملابسي وجلست في صالة الجلوس بجوار الهاتف لأقوم بالاتصالات اللازمة لإعلان خبر وفاته.
لا أدر لم كانت سوزان أول من اتصلت بهم..
ربما طمعا في أن يصلح الموت ما أفسدته الحياة.

مرت أربعون يوما على وفاة وحيد، قضيتها في حالة انهيار تام من جراء تراكم تعب الشهور الأخيرة، لم تفارقني خلالها والدتي التي حاولت قصارى جهدها أن تخفف من وقع المصاب علي، مكفرة بذلك عن موقفها الصارم من زواجنا.. وحده الموت قادر على دفن كل الضغائن.

أيقظتني باكرا وهي تقول:

- انهضي يا ابنتي، إن كنت ستذهبين إلى المقبرة فالأحسن أن تفعلي قبل أن تشتد حرارة الشمس. سأعِدُّ نفسي لمرافقتك.

قلت وأنا أغادر الفراش بدون تردد:

- شكرا، أفضل أن أكون وحدي في ذكراه الأربعين، سوف أسهر على بناء القبر وتثبيت الشاهد وأعود.

كانت المقبرة تعج بالمقرئين، والأطفال الذين يبيعون الماء لسقي القبور والريحان. وكثير من المتسولين أغلبهم يحمل إعاقة مستديمة يفردها أمام أنظار الزوار. حركة دائبة تمتهن الموت.

لم أكن قد زرت قبره بعد دفنه، لا لكون حالتي الصحية لم تكن تسمح فحسب ولكن لأنني ما أحسست لحظة بغيابه.. لازال يملأ البيت بمشاكسته. الغريب في الأمر، أنني كلما استحضرته، يكون في كامل صحته وكأن المرض وحده من قضى ورحل تاركا وراءه روحا تتدفق حيوية.

لم أرتد ملابس الحداد، البيضاء، التي تريد العادة عندنا أن تكتسيها الأرامل طوال مدة العدّة، نزولا عند رغبته واقتناعا منّي أن الحداد شيء حميمي يرتديه القلب ولا يمكن أن يخضع لمقاييس زمنية.

ثم إن للحزن كبرياء أكبر من أن يستعرضه الإنسان.

ثبّت المكلف بمصلحة التسجيل بالمقبرة الشاهد الذي كُتب عليه كما أوصى بذلك وحيد أبيات خوصي أنخيل بالنطي تحت الاسم وتواريخ الميلاد و الوفاة.

أي شاعر لم يحلم بموته؟ أي شاعر لم يُرصّع قبره بالكلمات؟ لم يرثِ نفسه في حياته عابرا بالقصيدة الخط الفاصل بين الموت والحياة؟ وحده الإبداع يعرف الأبدية.. فيما تتلاشى جثة صاحبه تحت التراب. ألهذا يصر الشاعر على التعبير عن موته كطفل يمتلك الأشياء حين يسميها؟

كفّنتَ نرجسيتكَ بعناية في ورق أبيض ومشيتَ في جنازتكَ وراء المشيعين والمعجبين إلى مثواك الأخير. هو ذا موطئ

قدمك الأخير.. أنت المسكون بالعزلة.. مقبرة خالية من كل إبداع.. تكتسح فيها الأعشاب الخبيثة كل مكان، تغطي القبور القديمة بالنسيان.. يأكل فيها اليابس الحي.. وما يبقى غير شواهد تحاول في عناء مدّ رؤوسها معلنة عن حياة كانت.. وما عادت تكون.

قال لي في إحدى جلساتنا الأولى: «أول امتحان نجتازه هو الفطام.. لا تتعب الحياة من فطمنا ممن نحبهم وكم جربنا من طرق للفطام ولا زلنا نتعلم».

اليوم فقط استوعبت ما كان يبغي قوله..

تفطم الأمهات أطفالهن في مجتمعنا بوضع الفلفل الحار أو الحدج المر فوق حلمة الثدي لجعل الطفل ينفر من ثدي يلسعه بمرارته، يتنكر له، بعد أن كان منبع الحب والحنان والغذاء. وهكذا يشكل الفطام من الثدي أول درس في فلسفة الاستغناء.. أول درج في سلم اصطداماتنا بالحياة لتتعدد بعد ذلك أنواع وأشكال الفطام. نحن لا نكبر بدون فطام ولا نعرف استقلالية بدون فطام.. كل فراق فطام وكل تخل فطام، كل هزيمة فطام وفي كل نجاح فطام. الفطام هو الثمن الذي نؤديه عند كل محطة للعبور نحو رغباتنا، نحو طموحاتنا، نحو المجهول المغري، ونحو حتفنا أيضا.

أليس الموت فطام من الحياة؟

وهل نفطم حقا ممن نحبهم أحياء كانوا أم أمواتا؟

أم أننا نظل نجتر طعم الفطام كدواء مرّ ضروري لاستمرارية حياتنا؟

حاولت أن أختلي به لكن أطفالا تحلقوا حولنا حاملين الماء والريحان.

وشوشته قائلة: «مقابرنا لا تسمح بحميمية الحديث.. سأنتظرك بالبيت».

ومشيت، يتبعني صوت طفل يقرأ بجهر:

«حلمتَ بأن تكون شاعر المستقبل
بموتك حقّقت رؤياك
اليوم بإمكان الآتي أن يكلمك.»

عندما تفقد عزيزا ويستوطن السواد روحك، تعجب كيف أن حزنك لا يصبغ الكون.. كيف أن الشمس تشرق في موعدها.. والحركة دائبة في الشوارع.. والمذياع يبث كالعادة أغاني الفرح الخفيفة.. ونشرة الأخبار على شاشة التليفزيون تنقل لك كل كوارث العالم سوى كارثتك العظمى.

ثم تبدأ وتيرة الوقت، في غفلة منك، في امتصاص ما يخنقك شيئا فشيئا.. ويبدأ الفرح بالحياة، أو ما يشبه ذلك، يطفو على سطح ذاتك.. وتعجب كيف عدت للابتسام من جديد.. لتصفيف شعرك أمام المرآة.. لاشتهاء أصناف الطعام، ومضاجعة الكلمة.

هكذا تنتصر الحياة على الموت باستمراريتها. في حين، يدخل الموت سجل الوفيات بجسده البارد.. ليتجمّد في ذاكرتنا مرسلا بين الحين والآخر قشعريرة الذكرى.

يبدأ الحزن كبيرا ليشيخ.. بينما يتجدد الفرح مع كل ولادة..

وحدها لحظات الولادة بخلقها.. بدهشتها.. باكتشافها

المجهول تتحدى النسيان.. تتحول إلى ذكريات نحتفظ بها ضمن صور عديدة بالأبيض والأسود في ألبوم الذاكرة.. كما تحتفظ المقبرة بعظام أصحابها..

وماذا لو كانت أبدية الإبداع وهم من أوهام الكتابة.. ومكتباتنا مقابر أخرى للكتب؟

قضيت اليوم بأكمله أرتب كتبه، وأجمع مسوداته المبعثرة بين محاضرات ودروس الفلسفة، ومقالات فكرية.. إلى أن نال منّي التعب.. وبينما أنا أضع ملفه الطبي بدرج المكتب سقطت من بين الأوراق مسودة لقصيدة تحمل تاريخا، يشي بأنها ربما آخر ما كتب:

«هنا أنسى
تاريخي المعتاد
هنا تسقط الأشياء
كالشَّعر الهشّ
لا جرح..
بفروة الرّأس

لنا عند الفراقُ
لقاء

فاحمليني...
على رائحة عطرك

لأعبر
بين الموت والحياة.»

تمدّدت على السرير أعيد قراءة القصيدة دون كلل.. حتى استحوذ علي النوم.
استيقظت مع الفجر، النور لا يزال مشتعلا بالغرفة وقصيدته فوق صدري. وأنا لا أعلم إن كنت أحلم أم أن طيفه كان فعلا هناك: كان بوسامته المعتادة، يراقصني، حاضنا جسدي بين ذراعيه ويهمس في أذني:

«اكتبي كما للأموات.. لتزدادي حياة».

نهضت وصوته يملأ مسامعي.. دخلت المطبخ، حضّرت فنجان قهوة وجلست على المكتب، أخذت ورقة وقلما والبيت غارق في صمت رهيب..
وكراهب يفتتح طقوس الصلاة، جهرت:

«تريّث قليلا أيها الموت.. إنّي أكتب».

منحت القلم زمام نفسي وتركته يقودني في سراديب البياض:

«أذكر يوم دخل عيادتي أول مرة..
كان كطفل لم يهيئ الامتحان.. اتخذ المشاكسة سلاحا ضد

وقار المجلس، وقد كنت في انتظار مريض بخطوات بطيئة ورأس مطأطأة كما هو شأن المصابين بالاكتآب - حسب التقرير الطبي الذي بلغني من المستشفى- .

جلس قبالتي قبل أن آذن له بذلك، كانت نظراته حادة بها من الذكاء ما بها من التحدي .

سألته : هل أنت متزوج؟

قال بنبرة تهكمية : حسب الضرورة .

فاجأني جوابه لكنني واصلت :

- ماذا تعني بالضرورة؟

أجاب :

-أكون متزوجا عندما تتطلب ضروريات الحياة الاجتماعية ذلك وأكون أعزبَ لضرورة الشعر .

- أنت إذن شاعر؟

- يمكن القول أني شاعر ناطق . . .

صدر للكاتبة

- «إيماءات»: (شعر) - دار الثقافة - الدار البيضاء ٢٠٠٢.
- مجموعة قصائد من ديوان «ورق عاشق» صدرت ضمن حقيبة فنية للفنان أحمد جاريد تحمل نفس العنوان - محترف الحفر الحكيم بناني - ٢٠٠٣.
- «ورق عاشق» (شعر) - دار الثقافة - الدار البيضاء ٢٠٠٥.
- «الإسعافات الأولية للطفل» (طب الأطفال) - دار الثقافة - الدار البيضاء ٢٠٠٥.
- «تعال نُمطر»: (شعر) - دار شرقيات - القاهرة ٢٠٠٦.
- «أي سواد تخفي يا قوس قزح»: (شعر) باللغتين العربية والفرنسية، الترجمة الفرنسية لعبد الرحمان طنكول - منشورات مرسم - الرباط ٢٠٠٦.
- «حروف وألوان» (حقيبة فنية) عمل مشترك - منشورات مرسم - الرباط ٢٠٠٦.
- «ورق عاشق» Feuillets passionnés (شعر) الطبعة الثانية باللغتين العربية والفرنسية، الترجمة الفرنسية لثريا إقبال - منشورات مرسم - الرباط ٢٠٠٨.
- «آخر الطريق أولّه» (شعر) - المركز الثقافي العربي - بيروت ٢٠٠٩.
- «مخالب المتعة»: (رواية) - المركز الثقافي العربي - بيروت ٢٠٠٩.

فاتحة مرشيد

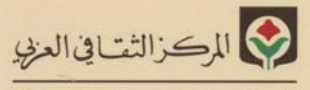
لحظات لا غير

إنها رواية استعادة الحياة، ولا شيء يعيد الحياة لجسد ميت، أو لراغب في الانتحار مثل صعقة الحب، مثل العشق.

فالطبيبة أسماء تستعيد جسدها بعد أن رفضت سابقاً فكرة إجراء عملية تجميل إثر استئصال نهدها.

والشاعر وحيد، الذي جاء إلى عيادتها إثر محاولة انتحار، يستعيد حبه للحياة.

بلغة الشاعرة تكتب الدكتورة فاتحة مرشيد رواية رومانسية جميلة تنسج حبكتها من وقائع الحياة، ومن جمال اللغة ومن غنى الشعر، فتقدم لنا رواية جذابة شديدة التأثير.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma



ISBN 978-9953-68-196-1
9 789953 681962